خالد محمد خالد

نحن البشر

ديسمبر ١٩٥٩

الناشر
مكتبة الانجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة ت ٥٠٣٣٧

Bibliotheca Alexandrina
0171761

خالد محمد خالد

نحن البشر

ديسمبر ١٩٥٩

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مراجع تاريخية

- قصة الحضارة :

تأليف « وِل ديورانت »

- العالمَ الحديث :

تأليف « أنور الرفاعى » و « شاكر مصطفى »

- لمحات من تاريخ العالم :

تأليف « نهرو » ترجمة « لجنة من الأساتذة الجامعيين »

- بسمارك :

تأليف « اميل لودفيج » ترجمة « محمود إبراهيم الدسوقى »

- كليمنصو :

تأليف « ليون دوديه » ترجمة « حسن محمود »

- الثلاث الكبار :

تأليف « دافيد . جى . دالين » ترجمة « مصطفى النصولى »

الإهـــداء

إلى الذين يحبـــون الجنس البشرى

ويريدون له الحرية ، والعدل ، والسلام

موضوعات الكتاب

صفحة

• قريتنا هذه ٥

• من الحروب الصليبية إلى الحرب العالمية الثانية . ٢٥

• من الحلف المقدس إلى ميثاق الأطلسى . . . ٥١

• أرباب الأرض ٧١

• محنة الضمير السياسى ٩٧

• والرماحَ مناجل ١٢١

مقدمة

أجمل ساعات حياتنا .، تلك التي تغشانا فيها سكينة المحبين الوُدعاء ..
وأوضأ ساعات تفكيرنا . ، تلك التي نفكر فيها تفكيراً موضوعياً . تتفوق فيه على الهوى والغرض .

وخير ما نأخذ من الماضي ـ العبرة . .

وأوثق ما يربطنا بالمستقبل ـ الرجاء ، والمثابرة .

وهذه الصفحات ، ثمرة خواطر مُباركة . .أفاءت عليها المحبة . ، وتنحّى عنها الغرض . ، وتلقّت من الماضي دَرسه . ، وحَملها إلى المستقبل شوق حميم ، ورجاء مُثابر . .

وكاتب هذا الكتاب يؤمن أن العالمَ قريتُه . . والبشريةَ أسرتُه . . ولقد هداه إيمانه هذا إلى إدراك أنّ على رأس واجبات الإنسان الذي أذن الله له أن يُفكّر ، ويكتب ـ واجباً جليلا بقدر ما هو محتوم . . واجباً يدعوه إلى الاهتمام بمشاكل العالم ، كما لو كانت مشاكله هو . . وإلى التفكير فيها ، والتعبير عنها بنفس الحرارة والولاء اللّذين يتناول بهما مشاكل وطنه ، وذاته . .

وحين هممت بكتابة هذه الصفحات ، لم أسأل نفسي : إن كانت قد فرغَت من مشاكلنا نحن، حتى تُولي وجهها شَطر مشاكل العالم..؟

لم أسألها هذا السؤال ؛ لأنها كانت قد ارتفعت ، ورفعتني معها إلى المستوى الذي نُدرك عنده وَحدة المشاكل . ، والذي أبصرنا فيه

حقيقة الوضع الإنسانى فى هذه الأرض . ، وعرفنا المفهوم السوى لكلمة « نحن » .

فـ « نحن » هذه ، ليست فى التحليل النهائى لها سوى سكان هذا الكوكب جميعاً .

وأنت . ، وأنا ـ إنما نبحث مشاكلنا « نحن » حين نُدير خواطرنا على المشكلة الإنسانية بأسرها . .

* * *

إن الحرب العالمية الأولى ، لم تُعلن من بلادنا .. ولم نُعلنها نحن .. ولم يكن لنا فى أسبابها دور .. ومع هذا ؛ فقد كنا نُساق إليها كارهين .. !

والحرب العالمية الثانية ، لم نُعلنها ، ولم نُستَشَر فيها . . ومع هذا ؛ فقد تساقطت قنابلها فوق مدننا وقُرانا ، وسُخرت لها مطاراتنا ، وموانينا ، ومواصلاتنا ، وخيرات بلادنا .

ولقد قمنا بتأميم قناة لنا ، وتقع فى بلادنا . . ؛ فإذا العالمَ كله يشتعل ، وكأن القناة تخترق كل بيت فيه . . !

وهكذا ، فنحن لا نذهب بعيداً عن أنفسنا ، حين نقترب من العالم كله ، ونعيش بوعينا بين مشاكله .

* * *

ولقد انتهيت فى هذا الكتاب إلى أن مصادر التخلف والتمزق فى عالمنا ، هى :

● — التجارة ، التي تحولت إلى رأسمال يريد أن تكون له الكبرياء في الأرض . .

● — الأحلاف ، التي تقوم على نُشدان المغانم الظالمة ، وتحشُد القُوَى لحروب دائمة . .

● — النظام الطبقي في الكيان الدولي ، حيث ينقسم العالم إلى « دول كبرى » لها كل شيء . . و « دول صغرى » ليس لها من الأمر شيء . .

● — انحراف الضمير السياسي عن المبادىء الإنسانية التي كان عليه أن يحرسها ـ إلى المآرب الخاصة ، التي كان عليه أن يرفضها . .

ولقد استهديت بالتاريخ . . . ولم أصنع ما صنعه القاضي التركي القديم الذي حكم بالإعدام ، ثم قال : والآن نسمع الشهود . . . !!

أجل . . لم الزم نفسي أحكاماً مُسبَقة . بل ذهبت أقرأ التاريخ ، وأستقرىء حركته ، حتى إذا انتهيت من الجولة التي رأيتها كافية ـ وجدتني أخرج بالنتيجة التي حدثتكم عنها ، والتي سترونها مبسوطة على صفحات الكتاب .

* * *

ولم يكن من العسير بعد كشف هذه القُوى المثبطة ، أن نهتدي إلى العلاج . . فالآفة ماثلة في أن بعضنا يرى العالم أضيق من أن يتسع له وللآخرين . . ومن ثَم فهو يريد أن يعيش وحده . . جاعلا نَهج حياته : « هذا كله لي » . . !!

وهـذا سلوك ظالم ، ومستحيل أيضاً .

فالعالم عالمنا ، و « هذا كله . . لنا كلنا » . .

ولا بد من إدراك هذه الحقيقة .

بيد أن ترك هذا الأدراك للأريحية الخاصة عمل غير مُجد . ولا بد من أن تُصاغ فى مبدأ ، وفى قانون .

والمبدأ ، والقانون ـ كالماء . . يتلون بلون إنائه . فأذا وقـعا تحت وصاية دولة ، أو دُول ، عادت الأخطاء مُضاعفة .

من أجل هذا ، ينبغى أن يحرس العالم كله هذا المبدأ ، وهذا القانون

ولـكن كيف تتم المحاولة ، وكيف تبدأ . . ؟

تبدأ بأن يُنظِّم العالم نفسه فى شكل قانونى ، يُزَكى انتظامه فى النطاق الأنسانى العميم .

ثم . . .

ثم ماذا . . ؟ ؟

معذرة ، فقد نسيت أنى أكتب مقدمة .. ، وكدتُ أستطرد . حتى لـكأنى أُعيد تسطير الـكتاب من جديد . .

فليـكن هذا حسبنا .

ولأترك صفحات الـكتاب تروى بقية الحديث .

خالد محمد خالد

قَريتُنا هٰذه ..

فى قديم الزمان ، كان رجل فى نضرة شبابه ، يمتطى صهوة جواد جسور ، يقطع الأرض وثباً من الشرق إلى الغرب ـ يغزوها ويفتحها .

كان اسمه ـ « الاسكندر » . .

وكان شعاره ـ « العالم امبراطوريتى » . . . !

وذات يوم ، مات كما يموت الناس . وسكنت أعلامه الخافقات .

ومضت عشرات القرون . . .

ووفد على الدنيا رجل آخر ـ قطع الأرض وثباً ، لكن لا غازياً ولا فاتحاً . . بل باحثاً عن المتعبين ، والمستعبدين ـ يحطم أغلالهم ، ويفك إسارهم ، ويلقى إلى أفئدتهم بكلمة السحر ؛ فإذا هم أحرار منطلقون .

كان اسمه ـ « توم بين » . .

وكان شعاره ـ « العالم قريتى » . . . !

* * *

كان « الاسكندر » يحمل سيفاً . .

وكان « بين » يحمل قلباً . .

كان « الاسكندر » سليل سادة فاتحين . .

وكان « بين » مثل البسطاء الكادحين . .

كان «الاسكندر» أيام كان التاريخ طفلا يحبو . أو مراهقا يلهو . .

وجاء « بين » والتاريخ يُشارِف رُشده .

وعلى الرغم من أن كِلاً الشعارين ـ « العالم امبراطوريتى » ، و « العالم قريتى » ـ قد هتف بهما رجلين من الناس ـ إلا أنهما لم يكونا شعار الرجلين وحدهما . . بل كانا شعار عصرين ، ومرحلتين من التاريخ بينهما تباين كبير .

فاتجاه التاريخ ، وروح العصر فى أيام « الاسكندر » تمثلا فى نزوته تلك . . أن يكون العالم امبراطوريته .

واتجاه التاريخ ، وروح العصر فى أيام « توم بين » ـ تمثلا فى إيمانه المضىء . بأن العالم قريته .

روح العصر ـ أيام « الاسكندر » ، كان شديد الولع بالبطل الفرد . عميق الاحترام لحق الفتح ، وقوة السيف . .

وروح العصر ـ أيام « توم بين » كان قد فتح عينيه على بطولات الجماهير ، وفتح قلبه وعقله لحق الإنسان ، وكرامة « الحياة » . .

وهكذا نرى « حركة التاريخ » فى يوم ، تحمل السيف وتشيد

القلاع . . وفى يوم آخر ، تحمل الفأس ، وتتعهد المزرعة . . !

وهى لا تصنع هذا عفواً ، ولا اعتباطاً . . بل وَفْق قوانين تقودها وتهديها ، وتمضى بها خلال تغير صاعد لا يعرف النكسة ولا الوقوف . .

لقد جاء فى عصر « العالم قريتى » وفى العصور التالية له ، من أرادوا أن يرفعوا الشعار القديم « العالم امبراطوريتى » . . فهل كان ذلك يعنى أن حركة التاريخ أخطأت ميقاتها . . ؟

كلا . . ولقد كانت صيحة « بين » ، « العالم قريتى » فجراً صادقاً لمراحل جديدة فى تاريخ البشر . . مراحل ستشهد كفاح الإنسان العظيم من أجل بعث « الأخاء الإنسانى » بعثاً واضحاً ، أكيداً .

وليس معنى محاولة الماضى التشبث بأرضه وسلطانه ، أن التاريخ يريد أن يرجع إلى الوراء .

لهذا ، سار مبدأ « العالم قريتى » كانساً من طريقه كل الرواسب . وجميع الفلول والمخلفات ، منتصراً على المحاولات الكثيرة المضادة له . : تلك المحاولات التى قامت قوية ، وأخمدت صاغرة . . !

« العالم قريتى » ـ عنوان عالم جديد إذن ، بزغ فجره من زمان .

ولقد آن لجيلنا أن يدرك هذا جيدا ؛ حتى تخلُص له الحياة وارفة . ، عادلة . ، آمنة .

وآن لكل « فرد » من البشر أن يحمل تبعاته تجاه هذا الإدراك .

لم يعد من حق أحد أن ينسحب إلى داخل نفسه ، ويقول : « ماذا أكون فى هذا العالم » . .

ولا من حق أى شعب أن يفعل ذلك .

فكل فرد ، مهما يبد متواضع الشأن .

وكل شعب ، مهما يكن محدود القـــدرة ، مغمور المكانة أقول : كل فرد ، وكل شعب ، هو العالـم بأسره . .

وأى شعب مغمور قابع فى أقصى مجاهل الأرض . . وأى فرد ، لا يرى نفسه شيئاً مذكورا ـ لا يدرى أحد ماذا يكون غدا ، شأنهما وشأوهما .

إننا فى عصر الناس . . عصر البسطاء . . عصر الرجال العاديين .

وبين عشية وضحاها ـ يقفز إلى مقدمة الصفوف شعب كان قبل قفزته بأيام ، مستعبدا مَهيضا . . !

ويعلو الرءوس الشامخة ، رجل كان قبل عُـلُوِّه نـكرة مغمورا ، لا تقع عليه العين فى زحام الحياة . .

وكم كان « هتلر » سيقهقه ويسخر ، لو تقدم منه أحد الناس ـ أيام كان يعمل ـ نقاشا ـ وقال له : أيها النقاش المسكين . اعمل لسلام العالم ما استطعت . . ؛ فإن سلامه رهن بمشيئتك وسلوكك . .

أجل . . كانت هذه النصيحة لو حدثت ، ستثير سخرية هتلر ، وهو يلوّن جدار الغرفة بفرشاته لقاء قروش معدودات . . وكانت تستوجب الرثاء لقائلها ، وتدمغه بلوثة العقل . . !

ومع هذا ؛ فما كان شيء يمثـــل الحق والواقع مثلما تمثله هذه الـكلمات .

ذلك أن هتلر « النقاش » لم يبق « نقاشا » ـ بل حمله تيار الحوادث إلى ذروة الحكم فى بلده « ألمانيا » . . وجاء يومٌ ، أمسك فيه بمصاير العالم كله . . وكانت مشيئته وسلوكه ، هما اللذان حددا موعد الحرب ، وساعة الدمار . . ! ! ! .

وكذلك تحول الشعب الألمانى الذى كان مصفداً بأغلال « فرساى » تحول إلى دولة قاهرة ، آمرة . . وإلى «ترسانة» كبرى تروع العالم أجمع

بمـــا تلقيه إلى بحاره ، وأرضه ، وسمائه ، من بوارج ، ومدافع ، وأسـاطيل . . ! !

* * *

كل « فرد » إذن ، له خطره . .

وكل « شعب » إذن ، له دوره . .

وكلنا ـ نحن الناس العاديين ـ لنا قيمتنا فى هذا العالم ، ولنا دورنا الأكيد فى بقائه عالماً صالحاً ، ووطناً طيباً . .

وليس ذلك ، لأن أيّـامنا،قد يمسك غداً بمصاير الأمور فحسب . .

بل ولأننا ـ نحن الناس العاديين ـ الخـالقون الحقيقيون للحياة ، الجاعلون لها معنى . . ومن ثم ، فنحن المسئولون الأولون عنهـا ، وعن مستقبلها . .

ونحن ـ الناس العاديين ـ نُكوِّن الرأى العام الذى بلغ فى كل الأرض أشدّه واستوى ـ وأضحى قادراً على فرض كلمته واحترامه .

لم يعد فى عالمنا وينبغى ألا يكون فى عالمنا مكان للويس آخر يقول: « أنا الدولة . . والدولة أنا » . . .

ولا لحاكم من طراز « جيزو » يقول : « كل شيء للشعب . . . ولا شيء للشعب » . ! ! .

وكذلك ، لا مكان لإسكندر آخر يقول : « العالم امبراطوريتى » . .

لا مكان فى عالمنا اليوم لغير العاملين من أجل الحق ، والخير ، والحرية ، والعدل ، والسلام .

ولقد أذن الله سبحانه للذين كانوا يستضعفون فى الأرض أن يرثوا مشارقها ومغاربها .

ومنذ عهد بعيد ، والتاريخ يولى وجهه شطر هذا المصير الانسانى الجليل ، ويمضى فى خط متعرج ، قد ينحرف أحياناً ذات اليمين ، أو ذات الشمال .. لكنه سرعان ما يعود إلى طريقه اللاحب، ووجهته الصاعدة الصامدة . .

والكيان البشرى متجه صوب توحيد عالمه ، وتحويله إلى قرية متلألئة بأضواء الحب ، والحنان ، والتقدم ، والعظمة . .

أجل . . لقد انعقد عزمه على عالم جديد . يتفوق على ضعفه . ويجاوز نفسه

عالمَ . .

الأخاء فيه طبيعة ، لا رغبة . .
والسلام فيه ضرورة ، لا صفقة . .
والحرية فيه حق ، لا منحة . .
والقوة فيه عدل ، لا سطو . .
والسعادة فيه مشاع ، لا امتياز . .

وصحيح أننا نشق طريقنا وسط زحمة هائلة من المصاعب ، والتناقضات ، والأزمات . . لكننا سنبلغ المرفأ حتما . وسنحقق كل اجتراءاتنا الباسلة الباهرة .

وإن قصة الزحف الطويل ، والجليل ـ الذى ساره نوعنا ، وقطعته أجيالنا السالفة لتشير إلى الفجر ، وتكاد تحدد ساعة الانتصار النهائى على كل العقبات والمثبطات .

* * *

مرة أخرى ، نقول : فى قديم الزمان ، كان ثمة غاز شعاره « العالم امبراطوريتى » .

ومرة أخرى ، نقول : إن ذلك الغازى الفاتح لم يكن دخيلا على عالمه وعصره ـ بل كان الابن البكر المطيع لروح جيله، وعصره . كان حامل الراية ، ومنفذ المشيئة .

ولطالما شهدت دنيانا أباطرة ، وقياصرة ، عَبّدت الشعوب صَلفهم، وشادت بجورهم ـ فى أزمان كان العدل فيها مرادفاً للقوة . ؛ فالعادل هو القوى . . . وكان الغزو فيهما مرادفاً للحضارة . ؛ فالغازى هو الرائد . . . !

أزمان تطورت خلالها عادة أكل لحوم البشر تطوراً ممتعاً « ! » فمن إنسان كان قبل هاتيك الأزمان ، يُنضج فى قِدر ، ثم يوضع

فوق السّماط بين صِحاف الطعام . . إلى ملايين من الناس تُجزر في الحروب وتُنحر . . ثم تُترك للعفن ، ولجوارح الطير .

حدث هذا . . ولا يزال قوم يحاولون له أن يحدث ، من أجل النزوة المسعورة المنقرضة . . نزوة « العالم امبراطوريتي » . . !

أجَل . . فكل قيصر غابر ، أو مُعاصر ـ يريد أن تخفق راياته على أوسع مساحة ممكنة من الأرض . . ويُدخل في حظائر رقيقة أكبر عدد ممكن من البشر . . ويَضيف إلى ثرائه أوفر قدر مستطاع من الغنائم والأسلاب . . !!!

وكان العالَم فيما سلف ، أكثر جهلا ، وأكثر استسلاماً وخوفاً . . وأهم من ذلك ، كان أكثر تباعداً ، وعُزلة .

وهكذا ، كانت استجابته للمشاركة بطيئة ومَرِجلة ، وكل بلد ، لم يقع في شِباك الغازي . . لم يكن يهتم بمصير البلد الآخر الذي وَقع . . حتى يجيء دوره ذات يوم ، وتأزف آزفته ، ويَلتقفه الغول الذي لا يشبع ؛ فيدرك حينئذ أنه أخطأ الحساب ، وأن مصيره تقرر في نفس الساعة التي تقرر فيها مصير أول ضحية سكت عنها ، وظن ألا وشيجة بين مصيره ومصيرها . . !

لم يكن الناس ـ أيامئذ ـ قادرين على إدراك أن « العالَم قريتهم » .

كان ولاؤهم لأنفسهم ـ لا لعالمهم . .

وهكذا سارت على الأرض فى عنفوان ، وغلظة ، وكبر . جحافل الإسكندر ، وجيوش دارا ، وإرهاب جنكيزخان . . وقائمة طويلة كليل الشتاء ، من الغزاة والجبارين .

حتى جاء يوم صاح فيه الناس : ها . . لقد وُلِد العالم الحديث . .

وكان ثمة عالم حديث يطل بوجهه الباسم . . عالم يتسم بالاهتمام بالإنسان ، وبحقوقه ، وبمصايره . . عالم كان ، ولا يزال يحمل رواسب أيام خلت . . . أيام الحقوق الإلهية المنتحلة للملوك والأمراء ، والمستبدين ـ لكنه على الرغم من هذا قطع ، ولا زال يقطع طريقه وتنبأ نحو عالم إنسانى ودود . . نافضاً عن كاهله الكثير جداً من أوزار القرون الماضية ، وضلالها .

وعالمنا الحديث مسلح بقيم ذكية ، تتخذ من كل مواطن الضعف مزية ونفعاً . .

مثال ذلك ، حروب نابليون . . إنها على قسوتها وبربريتها ، طوحت بمبادىء الثورة الفرنسية وأذاعتها . . وأزالت كثيراً من التخوم والحدود ، وهيأت الأرض لوحدة محتومة . .

فألمانيا ـ مثلا ـ قبل غزو بونابرت ، كانت تتكون من

« ثلثمائة » دويلة متفرقة ، متباغضة ـ فوُحِّدت يومئذ فى « تسع وثلاثين » حيث كان ذلك تمهيداً لاتحادها الكامل فيما بعد على يد « بسمارك » . .

و « إيطاليا » أيضاً ، كانت عند غزو « نابليون » اثنتى عشرة ولاية ـ فوحدت فى ثلاث فقط ، حيث تم توحيدها فيما بعد على أيدى ماتزينى ، وكافور ، وغاريبالدى . .

هكذا اتخذ روح عالمنا الحديث من عُدوان نابليون مزية ، ونفذ من خلال أطماعه إلى تحقيق إرادة التجمع ، والوحدة .

وفى الوقت الذى كان هناك آل « بوربون » وأسرة « هابسبورج » ، وعائلة « هانوفر » ، وآل « رومانوف » ، وآل « عثمان » ـ يملكون ويحكمون ويسودون . . كان هناك كذلك ، توم بين ، وماركس ، وانجلز ، وروبرت أوين ، وسان سيمون ، وفولتير ، وروسّو ، وتولستوى ، ومونتسيكيو ـ يقودون القلب البشرى ، والفكر الإنسانى إلى العمل القوى من أجل تحرر شامل عميم . .

وعلى أصوات هؤلاء الأفذاذ ، أخذ الوجدان البشرى يصحو ، ويفيق .

والثورات التى كانت تقوم على أساس عنصرى ، صارت

تقوم على أساس عميم من حقوق الإنسان وتتجه اتجاهاً أكثر عالمية وشمولا ..

فمثلا - حين تثور فى وجه النمسا أمم تستعبدها النمسا ، ويلعب بمقدراتها طاغية أوربا « مترنيخ » - نرى شعب النمسا نفسه يعمل بقيادة المثقفين فيه - على إسقاط « مترنيخ » وفتح باب الحرية للشعوب التى تستعبدها النمسا .. وهكذا تلاشى الحسّ العنصرى القومى - أمام الحسّ الإنسانى العظيم .

وكذلك عند ما تداعت أمجاد الإمبراطورية العثمانية فوق رءوس طغاتها الخلفاء .. ونهضت ولايات البلقان « المسيحية » هاتفة بحريتها واستقلالها .. نرى الشعوب العربية « المسلمة » تثور فى نفس الوقت على تركيا - غير متعصبة « دينياً » لوطن الخلافة الإسلامية .. بل ساعية هى الأخرى وراء حريتها واستقلالها .. هادرة مع الموكب الذى لا يعرف غير الحرية وجهة وغاية .

هكذا اكتشف عالمنا الحديث نفسه ، وأدرك مصيره .

* * *

وجاء العلم ناشرا قلوعه وشرُعه .. جاء فصحّح نظرتنا إلى الكون ، وإلى الحياة . وإلى أنفسنا وعلاقاتنا .. فإذا نحن على إثر هذا نتدانى ، ونقترب. وإذا الجغرافيا الإنسانية تنقلب انقلاباً هائلا .

لم يكن العلم يعنى مجرد المعرفة النظرية . . بل كان يعنى كل ما تفضى إليه هذه المعرفة من حركة ، وكشف ، واختراع . .

يعنى الأساليب الجديدة فى الصناعة ، والزراعة ، والتجارة . .

إن تطورات فذّة ، قد حدثت فى هذه القطاعات جميعا . ومع هذه التطورات ، قامت أزمات وتناقضات من نوع جديد .. وشدّ زناد « الربح » إلى أقصاه ، فمضى يعالج تضخمه واختناقه بالاستعمار . . بيد أن إدارة الأخاء والتجمع ،كانت تتسلل ،وتعمل ، وتدفع المعوقات، وتلاقى أعداءها فى مواقف فاصلة . .

وكانت « حركة التاريخ » وهى تمخر هذا العُباب ، لا تفتأ تلقى فى روع الناس أن عالمهم هذا واحد . . وأن أية كارثة تصيب أقصى شماله ، سيصيب وبالها أقصى جنوبه .

وثمّة سؤال كان يمكن أن يوجّه لسكان العالم فى بداية عام ـ ١٩١٤ ـ ولا يجد من يجيب عنه سوى أفراد معدودين .. ويمكن أن يوجّه اليوم لسكان الأرض جميعاً دون أن يجد ممن يعرفون الجواب سوى نفر قليل جدّ قليل . .

فأيّنا يعرف شخصاً اسمه « جافريلو برنسيب » . . وشخصاً آخر اسمه « فرديناند » . . ومدينة اسمها « سارا جيفو » . . . ؟ ؟ ؟

إن مئات الملايين منا لا يعرفون عن هذه الأسماء شيئاً .

ومع هذا ؛ فأن مئات الملايين من الناس ، سيقت من حيث

لا تشعر ولا تريد ، إلى حرب عالمية ما حقة بسبب هذه الأسماء الثلاثة . . ! ! !

نعم . ؛ فإن طالباً صربيا هو « جافريلو برنسيب » أطلق رصاص مسدسه على وارث عرش النمسا ، واسمه « فرديناند » فى مدينة اسمها « ساراجيفو » ؛ فإذا هذه الرصاصات تصبح السبب المباشر ، وإن لم تكن السبب الأوحد ، في قيام الحرب العالمية الأولى التى التهمت حصاد الحضارة . . وسيقت الجموع البشرية من كل مكان لتكون لها علفا ، وقربانا . . !

ألم يكن ذلك درساً من التاريخ ـ أىّ درس ـ ليعلم الناس أن العالم قرية . . ؟ وأن عود ثقاب واحد يُمسك بأعواد من الحطب فى مكان ما من هذه القرية ، قادر على حرقها جميعاً . . ؟

قد نتساءل : أى عدالة فى أن يدفع سكان الكرة الأرضية ثمن رصاصة غادرة أطلقها « تلميذ » فى مكان قصىّ بعيد . . ؟ !

لكن العدالة أن يحدث هذا . . والعدل التاريخى هو الذى فرض على الناس كلهم هذا الفداء ـ لا فداء وارث عرش النمسا ـ ؛ بل فداء الحقيقة التى رفض الناس أن يبصروها ، ويأخذوا بها . . حقيقة أنهم عائلة واحدة ، فى قرية واحدة . .

حقيقة أنهم يركبون سفينة واحدة . إذا تُرك أحد راكبيها

يلهو بمثقب فى قاع السفينة ، فقد استحق الآخرون الغرق والهلكة والضياع .

ولقد كان العالم كله مسئولا عن الأسباب التى تراكمت وتجمعت بين يدى الحرب العالمية الأولى . . وواجب عليه أن يعرف هذا ، فإذا جهل ولم يعرف ، فلن يشفع جهله له . .

إن الجهل بأن السم يقتل ، لا يفيد شيئاً فى إنقاذ حياة من يتناول السم جاهلا عقباه . .

وكذلك جهل البشر بأن تمزق عالمهم مهلكة لهم ، لا يفيدهم شيئاً .

وهذا هو الدرس الذى يجيب بنا أن نحذقه .

فى عام (١٩٣٠) قامت فى دولة ما أو دولتين أزمة مالية بسبب آثار الحرب ، وبسبب اضطراب نظمهما الاقتصادية . . فهل ظلت الأزمة محصورة داخل حدود هاتين الدولتين . . ؟

كلا ، ولقد طارت كاللهب حتى غطت وجه الأرض ، واجتاحت كل الدول ، ودعى العالم كله ليحمل ـ كارهاً ـ وزر تلك الأزمة الطاحنة .

وذات يوم قام فى ألمانيا مستبد أهوج اسمه « هتلر » وقام فى إيطاليا دونشى مغرور اسمه « موسولينى » .

سيّر الأول « فرق العاصفة » تدق الأرض بأحذيتها المختالة الثقيلة . .

ووقف الثانى يخطب فوق فوهة مدفع صارخاً « الويل للأمم غير المسلحة » . .

فهل عادت شرور الطاغيتين على بلديهما وحدهما . . ؟

كلا . . وحينما سكت العالم عن غرورهما ، بل صفّق أحياناً إعجاباً بهما . . طالبته العدالة التاريخية بالثمن ، وألزمته القصاص ، وهكذا أصبح ذات يوم ، فإذا هو وجبة شهية ، ووليمة دسمة لحرب عالمية ثانية . .

* * *

« العالم قريتنا » ليست مجرد شعار جميل . . إنها الحقيقة . . وسيظل العالم يدفع ثمن كل خطأ ، يرتكبه فى أى مكان مجهول ، أى فرد مجهول . . ذلك لأن العالم قرية . . العالم وحدة . . العالم كيان واحد كالجسد الواحد :

ولقد تشابكت المشاكل العالمية ، حتى صارت ظروف نشوئها ، وأسباب علاجها ـ عالمية ، لا إقليمية . .

وإن العالم اليوم لينادَى إلى وحدته ، كما لم يناد من قبل ..

لقد رأينا حين قامت مصر بتأميم قناتها ، كيف وقف العالم كله ممسكا أنفاسه . . وكأنما القناه المصرية ، تخترق كل شارع فى الدنيا . بل كل بيت من بيوتها . . !

إن الناس ـ جميع الناس ـ مدعون اليوم أفراداً ، وشعوباً ، وحكومات ـ كى يكيفوا سلوكهم وتفكيرهم وفق هذا الإدراك .

عليهم ألا يفكروا لأنفسهم وحدها . . ولا يفكروا بعقولهم وحدها . . بل يفكروا للعالم جميعه ، وبعقل العالم جميعه .

هذه هى الضرورة الإنسانية والتاريخية التى كشفناها بعد طول عناء . والتى لا تقل وثاقة وحتمية عن أى قانون كونى . . ولا سبيل بعد الآن إلى تجاهلها ، ولا سبيل إلى الفرار من تبعاتها . . فبدلا من أن نكتوى بعاقبة الإفراط والتفريط ، علينا أن نكشف القوى التى ترفعنا إلى مستوى الحياة فى عالم واحد لا أنانية فيه ولا حرب ، ولا استغلال ولا كراهية .

وهذا يقتضى أن نتعقب ونواجه كل عوامل الفرقة . والتمزق ، والضياع .

وليس هناك دليل أمين يدلنا على تلك العوامل ويفضحها سوى التاريخ ، فلنمض معه ، حتى نمسك بها غير متنكرة ، ولا خادعة . .

التاريخ سجل يطوى كل واقعنا الإنسانى ، ويصون وثائق نطورنا . . فلنسأله : لماذا نختلف ونتحارب . . ؟

من أى مادة صنعت المناجل التى حصدت الملايين البريئة من صفوف البشر . . ؟ من الطمع . . ؟ من البغض . . ؟ من الجهل . . ؟ من الغطرسة والكبر . . ؟ من خلل النظم ، وفساد الأوضاع . . ؟

من بعض هذه ، أم من كل هذه ، صُنعت مناجل الموت والفناء . . ؟

لنسأل التاريخ فى حقبه القريبة ، ولنحاول أن نكشف فى ضياء أنبائه ، تلك القوى الشريرة التى عملت ، ولا تزال تريد أن تعمل على تقويض البناء البشرى ، وتشتيت الصف الانسانى .

مِن الحُروب الصّليبيّة
إلى الحرب العالميّة الثانية

« يا شعب الله المحبوب المختار . . . . »
« لقد جاءت من فلسطين ، ومن القسطنطينية أنباء »
« محزنة، تعلن أن جنسا نعينا أبعد ما يكون عن الله ـ »
« قد طغى وبغى فى تلك البلاد ، بلاد المسيحيين . »
« يقتلون إخوانكم ويأسرونهم ويهدمون المذابح »
« فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ! ! . . . . »
« فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ـ ربنا ومنقذنا ـ »
« الضريح الذى تمتلكه الآن الأمم النجسة . . . . . »
« إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم »
« أن هبوا لانقاذها . . . . ، . . . . »
« فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من »
« ذنوبكم . . وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك »
« مجداً لا يفنى فى ملكوت السماوات . . . . »
« لا تدعوا شيئاً من أموالكم ولا من شئون أسركم »
« يقعد بكم عن القتال . . ؛ فالأرض التى تسكنونها »
« الآن ، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار ، »
« وقنن الجبال ـ أرض ضيقة لا تتسع لسكانها »
« الكثيرين . وتكاد تعجز عن منحهم ما يكفيهم »
« من الطعام . . . . »

« ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم »
« بعضاً ، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم »
« فى حروب داخلية .... »
« إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها فانتزعوها »
« من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم ... !!! »

* * *

هذا هو النداء الذى وجهه البابا « أربان الثانى » إلى شعوب أوربا ، داعياً إياها إلى الحروب الصليبية . وهذا النداء هو الطلقة الأولى فى تلك الحروب .

ونحن الآن فى أوربا .. فى القرن الحادى عشر حيث تتكون « أوربا » وتصنع نفسها .. وحيث تتكشف رويداً رويداً جميع القيم التى ستحدد لها اتجاهها الفكرى والسياسى والاقتصادى .. ، وحيث تبرز إلى المقدمة العوامل التى ستؤثر فى حركة التاريخ ، وتدفعها .

ولقد تسأل : ما شأن أوربا بموضوعنا هذا .. ؟

ألا فلنعلم أن قصة « أوربا » هى قصة المرحلة الماثلة من مراحل التطور البشرى ، والتحول العالمى .. ولا سبيل لمعالجة قضية السلام العالمى .. والإخاء الإنسانى بعيداً عن أوربا ، وعن الأحداث التى صنعت أوربا ، وصنعتها أوربا ..

• فالقارة الأوربية ـ هى الوارث الأكبر للتراث الإنسانى جميعه. اليونانى . . والمسيحى . . والإسلامى . .

كما أنها اليوم ، الراحل الذى يرثه عصرنا وأجيالنا .

• والقارة الأوربية ـ هى الوعاء الذى تشكلت داخله هذه الثورة الصناعية الكبرى التى دفعت العالم وأشاعت فى حركته الداهمة كثيراً من التناقضات ، وملأت الحياة الإنسانية بفلسفات ومذاهب ، وعوامل شتى من الفكر ومن المحاولة ـ هى التى تحدد اليوم للتاريخ وجهته وطريقه .

• والقارة الأوربية ـ هى الجسر الذى تعبره اليوم حضارتنا الإنسانية . مولية وجهها شطر تطور أمثل ، وغدٍ أفضل . .

والقوى التى تبث فى الحياة الإنسانية كثيراً من الخير ، وتصيبها بكثير من الشرّ والضرّ . . ترعرعت فى أوربا وازدهرت ـ مما يجعل دراستها فى وطنها هذا أمراً محتوما .

وأوربا كقوة سياسية ذات تأثير عالمى تبدأ ـ فى تقديرنا ـ من الحروب الصليبية . . تلك الحروب التى حملت إلى أوربا ثقافة كانت تنقصها . ، وفتحت عينيها على ثروات كانت تريدها ، وعلى دور تاريخى كانت تتهيأ له .

هذا الدور الذى يبدأ باليوم الذى سارت فيه طلائع تلك الحروب التى ظلت تعاود الظهور والالتحام مدى مائتى عام ، بل أكثر من مائتى عام ، والتى سميت بالحروب الصليبية . . !

* * *

ونعود إلى البابا « إربان الثانى » يتنقل بين شعوب القارة ، مذيعاً فيها نداءه السالف .

« يا شـــعب الله المحبوب المختار . . . »

لقد أخذ « إربان » على كاهله أن يصنع من شعوب أوربا قذيفة يرمى بها ما أسماه « الشعوب النجسة » .

وكان من الطبيعى أن يلجأ للحمية الدينية يثيرها ، ويستجيشها ، فذهب يحدث الناس هناك عن إخوانهم الذين يقتلون فى فلسطين ، وعن الضريح المقدس الذى يلقى المسلمون فيه رجسهم ونجسهم .

والتاريخ يشهد . كيف كان المسيحيون فى فلسطين ينعمون بالحرية والأمن بين إخوانهم العرب والمسلمين . .

وحين قام حاكم مجنون أصاب المسلمين من شره أكثر مما أصاب المسيحيين ـ وهو الحاكم بأمر الله . .

نقول : حين قام هذا الحاكم فى نوبة من نوبات جنونه بهدم

« كنيسة الضريح » نهض المسلمون فى كل الأقطار ، وجمعوا مالا جمًّا ، وأعادوا البناء المتهدم أروع وأبدع مما كان .

فلماذا وقف البابا « إربان » موقفه ذاك . . ؟

وما حقيقة الدوافع لحرب لبثت فوراتها أكثر من مائتى عام . . ؟!

هنا تتلق « أوربا » أول وأخطر درس فى حياتها السياسية . . ويتلقاه العالم كله منها .

* * *

● بدأت الحروب الصليبية بطليعة لم تصبر من فرط حماسها . . ولم تنتظر الموعد الذى حدده « البابا » لبدء الزحف ، فسارعت إلى الخروج فى مارس عام ١٠٩٦ بقيادة « بطرس الناسك »

ولم تكد هذه الطليعة التى كان يُنتظر منها الورع والتقوى . . لم تكد تقطع من الطريق بضع فراسخ حتى دهمها اليأس والجزع . فمضت تسرق وتنهب وتهتك الأعراض فى بلاد المسيحيين أنفسهم — مما جعل « بطرس الناسك » يعتزلهم ، مشمئزا ساخطا .

● بعد هذه الطليعة ، تحركت الحملة الأولى يقودها أمراء أوربا . . ولا يكادون يبلغون منتصف الطريق حتى يصير بأسهم بينهم شديدا . . ويذهب كل منهم إلى سبيل . يفتح لنفسه فتوحاً خاصة . .

ويَشتّمُ « الكسيوس » امبراطور « بيزنطة » أنهم يريدون « القسطنطينية » المسيحية ، أكثر مما يريدون « أورشليم » وذلك لما فى القسطنطينية من كنوز وأموال ، فيتقى شرهم بالرشوة .. ويشترى ولاءهم الذى سرعان ما خانوه ـ بالأموال والهدايا .. وبعد ثلاث سنوات من زحفهم يبلغون « أورشليم » ويفتحونها .

● وتقوم الحملة الثانية بقيادة « لويس السابع » ، و « كنراد الثانى » امبراطور ألمانيا ، فتسوم بعض بلاد أوربا المسيحية الخسف والعذاب . وعند مشارف القدس تنزل بها هزيمة ماحقة .

● وتتلوها الحملة الثالثة . يقودها «قلب الأسد» وتنتهى بالصلح ..

● ومن بعدها تأتى الحملة الرابعة .. فالخامسة .. فالسادسة ..

● ويجىء مسك الختام بالحملة السابعة يقودها « لويس التاسع » ملك فرنسا وأسير دار ابن لقمان .. !

* * *

عَبْر هذه الحروب التى دامت أكثر من مائتى عام تخبو تارة ، وتستعر تارة أخرى .. تكشّف الوجه الحق لإحدى القوى المخربة التى تعمل لتقويض التفاهم العالمى ، والأخاء الإنسانى .. وتبين تماما أن الدين قد استُغِلّ استغلالا رديئاً لانجاح غزو كانت كل بواعثه اقتصادية عدوانية .. وعرف الناس أخيراً ـ أن الصليب

لم يكن يقود الناس إلى معارك مقدسة كما ألقى فى روعهم . . بل إن التجارة هى التى قادت الصليب فى خداع ومكر إلى معارك الربح والأثراء . ، وإلى مآرب أخرى . .

ولسنا ندرى : هل كان « إربان » يعى هذه الحقيقة حين دعا أوربا إلى الحرب ، وحين قال لها فى ندائه السالف .

« إن الأرض التى تسكنونها تضـيق بكم ، »
« وتعجز عن إمدادكم بكفايتكم من الطعام »
« فاخرجوا إلى أورشـليم ، فأنها أرض »
« لا نظير لهـا فى خيراتها . . . . »

أقول : لا ندرى هل كان البابا « إربان » يعى حقيقة الدوافع لتلك الحروب. أم أن أساطين التجارة والمال ، قد أحسنوا استغلاله .

ومهما يكن من أمر ؛ فأن إغراءه الناس وحضّهم على الحرب بسبب من المعيشة والرزق ، يدل على أن الدين وحده لم يكن كافياً لأضرام تلك النار .

والآن ، لننظر كيف أن التجارة وحدها كانت وراء تلك الحروب التى كادت تعصف إلى الأبد بكل روابط الأخاء والقربى بين الديانتين الكبيرتين ـ الإسلام والمسيحية . . ؟

إن المدن الإيطالية الأربع ـ البندقية ، وجنوى ، وبيزا ، وأملفي ـ كانت تقوم بتصدير المحاصيل الإيطالية ، ومحاصيل البلاد الواقعة وراء جبال الألب . .

هذه المدن ، اتسع نشاطها ، ونَمت تجارتها عندما انتزعت صقلية وجزء كبير من أسبانيا من أيدى المسلمين . فخلص غرب البحر الأبيض المتوسط لها . . واشرأبت أطماعها بعد هذا إلى شرق البحر الأبيض الذى كان لا يزال فى قبضة المسلمين . . وهنا وضعت تلك المدن خطتها للسيطرة على شرق الأبيض المتوسط تمهيداً للسيطرة بعدئذ على أسواق الشرق الأدنى .

هذا هو السبب الذى أشعل الحروب الصليبية وفضحه سلوك الحرب نفسها .

● ففى الحمله الثانية ، نجد « بلدوين » الذى ورث انتصارات أخيه ، ينصب نفسه ملكا على « أورشليم » بمساعدة المدن الأيطالية نظير أن يسلمها يافا ، وصور ، وعكا ، وبيروت ، وعسقلان . . أى يسلمها جميع الموانىء والثغور التى تريدها لتجارتها . !

● وعندما دعا القديس « برنار » للحملة الثانية ، يتقاعس عنها « كنراد » امبراطور ألمانيا . . فتتقدم البندقية ، وجنوى ، وبيزا . . وتغذى الفتنة الداخلية التى كانت قائمة يومئذ فى ألمانيا . . ثم توعز إليه

بأن خير سبيل للقضاء على هـذه الفتنة أن يشغل شعبه بالحرب خارج بلاده .

وهكذا تزعم « كنراد » الحملة الثانية . . !

● وبعد موت « صلاح الدين » يدعو البابا « أنوسنت الثالث » إلى الحملة الرابعة ، ويرسم بنفسه خطة الحرب ، وتقضى بأن تتجه الحملة أولا إلى مصر فتستولى عليها . . ثم تثب منها على بيت المقدس .

وتؤيد « بيزا » و « جنوى » هذه الخطة . . ولكن البندقية . . تحاول دحضها .

لماذا ! . . . ؟

إن « البندقية » آنئذ . كانت تربح من مصر أموالا طائلة . إذ تصدر إليها الأخشاب ، والحديد ، والأسلحة ، وتستورد عن طريقها الرقيق .

وانتصار الهجوم المقترح عليها ـ يجعل من بيزا وجنوى شريكتين لها بعد النصر فى تلك الأرباح التى تحتكرها .

من أجل هذا ، عارضت الحملة . . ولما أكرهها البابا على القبول تظاهرت به ، وأسهمت فى تحويل الحملة وإمدادها بالخيل والسلاح ، لكنها فى نفس الوقت ، أبرمت مع مصر اتفاقا سرياً ـ ضمنت لها فيه تعويق الغزو وإحباطه . . !

● ونحن نعلم أن الامبراطورية البيزنطية ، كانت مسيحية ، بل كانت معقل المسيحية . . ومع هذا ، لم تكد تلغى الامتيازات التجارية التى كانت تتمتع بها مدينة البندقية . . حتى تلقت من الجيوش الصليبية نفسها ضربة قاتلة .

لقد جهزت « البندقية » جيشاً قوامه عشرة آلاف جندى ، وسيرته إلى القسطنطينية . . !

وثار البابا ، وأنذر بحرمان كل من يشترك فى هذا الجيش .. ولكن رنين المال ، أصم الآذان عن نداءاته المقدسة .

وفورا ، تحركت إلى القسطنطينية « المسيحية » أربعمائة وثمانون سفينة . . ودخلها الجيش الصليبي ظافراً فاتحا . وعاث فيها تخريبا ، وفساداً ، وعربدة .

يقول « ديورانت » فى كتابه « قصة الحضارة » :

« . . . وعانت كنيســـة أيا صوفيـا يومها »
« على أيدى المسيحيين أنفسهم ما لم تعان مثله »
« على أيدى الأتراك فيما بعد عام ١٤٥٣ . . . »

* * *

وبعد . . أليست هذه الشواهد التى سقناها كافية للدلالة على أن الحروب الصليبية ، لم تكن صليبية . . ؟؟

بلى . . ولقد كانت حروب التجارة ، والربح ، ورأس المال . . ولا شيء سواها .

وثمة مشاهد أخر ، لابد من تدبر مغزاها .

فالحرب الصليبية لم تتخذ المسلمين وأرضهم هدفها الأوحد . . بل صبت عذابها صباً على يهود أوربا .

فالحملة الصليبية الأولى ـ قرر زعماؤها قبل السير إلى أورشليم أن يجهزوا على اليهود بقتلهم وحرقهم .

وبالفعل ، زحفت الجيوش محاذية نهر الرين ، فأبادت اليهود إبادة شاملة .

وقد تسأل : ولماذا اختار الصليبيون هذه الجهة بالذات . . ؟

والجواب يكشف لك عن سر الحروب الصليبية كلها ففى محاذاة نهر الرين كانت تقع مراكز التجارة والأعمال اليهودية .

ولما كان المحركون الحقيقيون للحرب الصليبية هم أساطين التجارة والمال فى البندقية ، وجنوى ؛ فإن خطتهم تعتمد على التخلص من كل منافس قوى . . واليهود فى أوربا ـ هم ذلك المنافس . . وإذن فلتجهز عليهم جيوش الصليب . . !

وهكذا بدأت الحملة الأولى عملها ـ وفى مذبحة « وورمز » وحدها

قتلوا ثمانمائة يهودى . وأشعلوا النار فى حى التجارة والمال .

وفى الحملة الثانية ـ بدأت الجيوش رحلتها بهجوم مبيد على يهود أوربا . . ووقف القديس « برنارد » وكان معبود المسيحيين جميعاً . . وقف ينهى عن قتال اليهود . . لكن قوة المال كانت أنفذ من صوته الوديع .

وفى مذبحة أخرى تدعى « بوردو ، وانجوليم » بفرنسا ، طرح الصليبيون ثلاثة آلاف يهودى على الأرض مصفدين . . ثم جيء بالخيل يعلو ظهورها الفرسان . . واتخذت من جثث هؤلاء أرضاً تطؤها الخيل وتجرى فوقها فى سباق عنيف حتى هلكوا جميعاً ووقف البابا « جريجورى التاسع » يزجر ؛ ويلعن الصليبيين على وحشيتهم . . ولكن البابا الحقيقى للحروب الصليبية ـ كان رأس المال الذى أراد هذا فكان له ما أراد . . !

وفى ختام تلك الحروب توجس التجارة خيفة من فلول الجيوش الصليبية ، فتغرى بهم الكنائس والحكومات .

وهكذا رأينا « فرسان المعبد » الذين كانوا من أشد المقاتلين حماساً واندفاعاً ـ يتعرضون لنقمة الكنيسة والحكومات فى كل بلاد أوربا .

ورأينا صكوك الغفران التى كانت تمنح لمن يقاتل المسلمين ، صارت تمنح لمن يقاتل « فردريك الثانى » وجيوشه المسيحية . . ! !

انتعشت قوى المال والتجارة بهذه الحروب انتعاشاً لم تظفر به « روما » نفسها فى حياتها وبذخها . . وغمرت أوربا بخيرات لا عهد لها بها من قبل . . فطعمت الذرة ، والأرز ، والسمسم ، والبطيخ ، والمشمش ، والتمر ، والليمون ، واشتد هيامها بالتوابل . . ولبست الدمقس ، والساتان ، والمخمل والأقمشه المزركشة . . واستعملت الطنافس ، والأصباغ ، والعطور . . وازدانت بالجـــواهر والياقوت .

وتلقت « أوربا » الدرس كاملا من هذه الحروب وكان يتلخص فى هذه العبارة .

« الحرب تنعش التجارة . . . . . . » . . . . !!

* * *

بعد هذا لم يصبح الشرق مأرب التجار وحدهم . . بل سارعت الحـكومات ، وسارع الملوك إلى الفتح حتى إن معظم الرحلات التى قامت لـكشف مجاهل الأرض ، كانت فى الحقيقة رحلات فى طلب الثروات بل وفى طلب الأفاويه بالذات .

لقد فُتنت « أوربا » بالأفاويه فُتُوناً شديداً . حتى إن الزنجبيل والقرفة . كانا يباعان بميزان الصيادلة والصاغة . . وكان الفلفل الأسود يباع بالحبة . . وثمن الحبة الواحدة ، زنتها فضه . . !!

يقول « زفايج » فى كتابه « فاتح البحار » . .

« لقد كانت الجرأة التى أوحت برحلات كولمب ، »
« ودياز ، وجون كابوت ، وغيرهم من عظماء الرواد »
« فى عصرهم ـ ثمرة الرغبة فى الاهتداء إلى طريق تجارة »
« جديدة مأمونة إلى جزر « البهار » الشرقية » . . !!

* * *

غذّت الحروب الصليبية كل قطاعات التجارة فى أوربا . . وأفاضت على النشاط المالى حيوية جارفة .

وفى نفس الوقت ، رأت أوربا ذلك الرخاء ، وذلك التقدم ، ثمرة من ثمرات الحروب الصليبية . . واعتنقت الفكرة القاتلة « الحرب تنعش التجارة » . .

وهكذا ستمضى أوربا حياتها . . تعالج أزماتها بالحروب . وتنمى ثرواتها بالحروب . . !!

ولسوف تنهض المصارف والشركات . . وسوف تبلغ من الضراوة حدوداً فوق طاقة الجماهير المستغلة المستنزفة . . وسوف تهب تلك الجماهير لحماية مصالحها فى ثورات تملأ أوربا . . متخذة نهجا من نحوى ذلك الشعار « كل ثروة سرقة . . وكل ثرى سارق » . . وسوف تحدث

انتفاضاتها هذه ردّ فعل آخر لدى أرباب المال والمصالح الكبرى فيزداد ضغطهم وتكالبهم . .

وبعبارة واحدة ، ستعانى أوربا حياتها . . ولكنها لن تتخلى عن هذه الحكمة « الحرب تنعش التجارة » . . وهكذا نلتقى بحرب أخرى لها فى التاريخ شهرة قريبة من شهرة الحروب الصليبية . . تلك هى « حرب المائة عام » .

لقد استغرقت أعمال تلك الحرب مائة عام كاملة من بين بريطانيا وفرنسا .

والعجيب أن سببها هى الأخرى ، كان التجارة . .

بل إن تاجراً واحداً ـ لكنه واسع الثراء والنفوذ ـ هو الذى أجج تلك الحرب .

أجل . . فنى عام ـ ١٣٣٦ ـ منعت انجلترا تصدير الأصواف إلى « الفلاندرز » التابعة لفرنسا . . كما امتنعت عن استيراد الأقمشة الفلمنكية منها .

وكان عميد هذه التجارة فى « الفلاندرز » رجلا اسمه « يعقوب فان ارتفلد » . .

ورأى يعقوب هذا أن تجارته ستبور ؛ فأبرم مع « ادوارد الثالث »

ملك انجلترا اتفاقاً سرياً يبيح لانجلترا احتلال « الفلاندرز » وتستأنف بعد هذا كل علاقاتها التجارية معها وبدأ تنفيذ الاتفاق بين التجارة والسياسة . . بل بين التاجر والملك . . وبمجرد البدء فى تنفيذه بدأت حرب « المائة عام » . . . !!!

* * *

وفى أواخر القرن الثامن عشر . تتولى حكومة الإدارة حكم فرنسا ، وفرنسا مفلسة خاوية . . ولا يكاد بونابارت يفتح لها « بلجيكا » وتذوق طعم خيرات هذا الفتح من فحم وحديد ومصانع . . حتى تدفع نابليون ، ويدفع هو نفسه إلى فتوح تلو فتوح .

* * *

وتجلو « بريطانيا » مكرهة عن الولايات الأمريكية بعد انكسارها فى حرب الاستقلال . . ولكنها بعد أعوام طويلة من جلائها ، تعود لغزوها من جديد ، أو تحاول غزوها من جديد حين تراها تتاجر مع فرنسا ـ الأمر الذى يعرض التجارة البريطانية للخسارة والبوار . . !

* * *

وفى الشرق الأقصى ، تقود التجارة وأطماع المال أكثر حروب

التاريخ خزياً وظلماً . . تلك هى « حرب الأفيون » .

ذلك أنه فى عام ـ ١٧٩٦ ـ تسن حكومة الصين تشريعاً ينقذ رعاياها من الأفيون ، ويحرم على الناس تعاطيه والاتجار به .

وكان « الأفيون » تجارة رابحة تصدرها أوربا وبريطانيا بالذات إلى الصين . .

وهكذا صادرت حكومة الصين عام ـ ١٨٣٩ ـ عشرين ألف صندوق من الأفيون ، مهربة من بريطانيا . . وعندئذ تحرك التجارة البريطانية ـ الدولة والجيش فتزحف أساطيل بريطانيا العظمى ـ ولا تنسوا كلمة العظمى هذه ـ تزحف إلى الصين فتضربها وتحتل جزيرة « هونج كونج » التى لا تزال تحتلها حتى اليوم . . وتنتعش الشركات البريطانية يومئذ ببركات حرب الأفيون . . !

ولم تكن تجارة الأفيون وحدها ـ الدافع لحرب الأفيون . . فأن التجارة يومئذ كانت قد تطورت . فصارت لا تعنى تصدير السلع فحسب . . بل وتصدير رؤس الأموال لتوظيفها فى نشاط تجارى .

* * *

وتبصر فرنسا نجاح حرب الأفيون ، فيسيل لعابها . . وتضغط الشركات الفرنسية على الحكومة والجيش . . فتشن هى الأخرى غزوا

لبلاد الصين . . مفسحة للتجارة الفرنسية مكاناً خصباً .

وبعد فرنسا تتقـــدم روسيا القيصرية مدلية هى الأخرى دلوها . . !

* * *

وتضج اليابان من سوء استغلال أمريكا وبريطانيا لموانيها التجارية . . وتهم باتخاذ الإجراءات التى تنقذ أقتصادها من الصادرات المتدفقة عليها كالسيل . . والعملة الأجنبية الهابطة عليها كالدمار . فتتحرك أساطيل مشتركة من أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وهولاندا . . فتغزوها . وتدعم هناك مصالحها التجارية .

* * *

ولقد فتحت الهند بشركة بريطانية . . . !!

وفتحت مصر بأموال روتشيلد . . . !!

بل إنه فى عام « ١٨٥٠ » سيّرت بريطانيا أسطولها الكبير الوقور الأنخم لمحاصرة اليونان من أجل ديون أحـــد المرابين الإنجليز . . !!

إن كل فتوح أوربا وغزواتها ـ كانت فتوح التجارة ، وغزوات رأس المال .

وكلما ازدهرت التجارة . ازدادت حاجتها إلى الحرب . فالازدهار التجارى ، يسبب ازدهاراً صناعياً . ويزيد الإنتاج زيادة مبهظة . تتطلب المزيد من الأسواق ، والمزيد من الخامات . . والأسواق والخامات . لاتباع عند العطار (!) والظفر بها يتطلب الاستعمار ، والاستعمار وسيلته الحرب ، والقوة ، والسطو .

وهكذا ازدحم القرن التاسع عشر بالحروب التى قادتها أطماع التجارة والربح .

فإذا أهلّ القرن العشرون ، وجاءت الحرب العالمية الأولى ، أبصرنا بين يديها الأسباب التى هيأت نشوبها . وعلى رأس تلك الأسباب منافسات التصدير ، والأسواق ، والمواد الخام .

إن تراكم الإنتاج أنجب الأزمات ، وأفرز الكساد . . وفى ضباب الكساد والأزمة ، تتلاشى التجارة الصغيرة ، وتقع بين فكى التجاره الكبيرة . وتتربع على العرش ، شركات الإحتكار . وينفسح المجال لملوك المال ،وأقطاب الربح . .وبين هؤلاء تقوم منافسة أخرى، لكنها عارمة القوى ، حادة الأنياب . خطيرة النتائج . لأنها لاتتحرك وحدها- بل تحرك معها الحكومات والجيوش وهنا تقوم الحروب . . وهنا قامت الحرب العالمية الأولى . . حين اصطدمت مصالح الشركات والاقتصاد بين الدول المتقاتلة على المنافع -المتنافسة على النهب . . !

وعلى الرغم من الكوارث التى أنزلتها بالبشرية ، تلك الحرب فأن ملوك المال لم يزدادوا بها إلا نُعْـمَى . . وإلا اقتناعا بأن الحرب تنعش التجارة . . وهكذا لم يحاولوا أن يطامنوا من جشعهم حتى لا تتعرض البشرية لمحنة أخرى . . فساروا بالدنيا إلى كارثة الحرب العالميه الثانية . !

وبين يدى هذه الحرب أيضاً تجمعت ظروف نشوبها ، وعلى رأس تلك الظروف نفس الآفة ، ضراوة الربح ورأس المال . .

فألمانيا ، أخذت صناعاتها تغزو الأسواق فى تفوق ملحوظ . . وإنتاجها زاد ونما . . ونجاحها هذا ضاعف من حاجتها إلى المواد الخام لِتَصنع . . وإلى الأسواق لتصدِّر .

ومثل ذلك تماماً ـ اليابان ، وإيطاليا قبيل الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا ينقصها من المواد الخام اللازمة لكافة الصناعات أربع مواد لاغير . ؟

بينما ينقص المانيا ، ست وعشرون مادة .

وينقص إيطاليا ، ثنتان وعشرون مادة .

وينقص اليابان ، تسع عشرة مادة .

وهذه المواد التى تنقص تلك الدول الظامئة الطامعة ـ من حديد ،

ونحاس ، وصفيح ، وفحم ، وبترول ، ومطاط وقطن ، وخشب ، وصوف الخ .

هذه المواد ، توجد متفرقة فى أقطار شتى من الأرض ، تستعمرها دول أخرى مثل بريطانيا ، وفرنسا . .

فهل نغلق الصناعات فى ألمانيا وإيطاليا واليابان ، أبوابها ؟

هل يحنى ملوك المال فى تلك البلاد رؤوسهم ويستسلمون . ؟

كلا . . . ولا بد من صنعا وإن طال السفر . .

وهكذا تأخذ ألمانيا الرين والسار ، ثم تخطف النمسا وتشكوسلوفاكيا . . وتخطف إيطاليا الحبشة . . وتغزو اليابان الصين .

ولقد أعلن الدوتشى قبل غزو الحبشة أن إيطاليا فى أشد الحاجة إلى القطن والبن . . ولهذا ستذهب إلى الحبشة . .

وفى هذا الوقت ، كانت أمريكا تأمر زراع القطن فى بلادها أن يتلفوا أجزاء كبيرة من الأرض المزروعة قطناً حتى لا تتسبب وفرة المحصول فى خفض السعر . .

وكذلك . كانت البرازيل ، تلقى إلى جوف المحيط بملايين الأطنان من محصول البن حتى لا ينخفض سعره بسبب وفرته .

انظروا . . . ! !

بلاد تتلف المحاصيل ، لكثرتها ولكى تضمن سعرا أعلى . . وأخرى ، تسوق أساطيلها وجيوشها لتستعمر بلداً حراً تسده بإنتاجه جوعها إلى القطن والبن .. القطن الذى يتلف فائضه فى أمريكا .. والبن الذى يغرق فائضه فى البرازيل . . . ! !

وليس يقتصروباء التجارة والرأسمالية على إشعال الحروب ، ونشر الاستعمار . بل هى قبل هذا تعطل حركة التاريخ بمساندتها القوى الرجعية وتأييدها المطلق للفاشية .

حدث هذا فى إيطاليا عام ١٩٢٠ حين قام نصف مليون عامل بالإضراب احتجاجاً على الظلم الواقع بهم من أصحاب المصانع .

يقول نهرو فى كتابه « لمحات من تاريخ العالم » :

« وأخذ أصحاب المصانع يفكرون فى خطة للانتقام ، »
« ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكى . . . »
« وكان أول من فكروا بالاستعانة بهم ، جماعة »
« من المغامرين بقيادة ـ بنيتو موسولينى ـ أطلقت »
« على نفسها ـ الفرق الفاشية ـ وأخذ كبار الرأسماليين »
« وأبناء الطبقة البرجوازية الكبيرة يمولون هذه »

« الفرق الفاشية ، ويحاولون استخدامها فى مقاومة »
« الاشتراكية . . . . »

وحدث مثل هذا فى ألمانيا كذلك .

يقول « نهرو » فى نفس الكتاب :

« وقد نجح هتلر نجاحاً كبيراً فى الاحتفاظ بين يديه »
« بكل هذه التيارات على ما فيها من تناقضات . . »
« واستطاع أن يجعل الطبقات الوسطى الفقيرة »
« تتحالف مع أصحاب المصانع ، وملاكى الأراضى »
« الكبار . . . . »

« وسبب هذا ، أن أصحاب المصانع أيدوا هتلر ، »
« وزودوه بالمال لأنه كان رغم تظاهره بمقاومة »
« الرأسمالية ، يشكل أكبر عائق فى طريق الإشتراكية »
« العلمية الصحيحة . . . . »

* * *

ومثل ذلك أيضاً حدث فى أسبانيا . . فوراء الجنرال فرانكو ـ كان أصحاب الأقطاع الذى قررت حكومة الجبهة الشعبية تصفيته ، يقفون ويتآمرون . . وكان الرأسمال الأجنبي ـ البريطانى والفرنسى ـ

يذهب فى تأييده وتعضيده مذهباً بعيداً . لأن المناجم الأسبانية الكبرى كانت جميعها تُستثمر برءوس أموال بريطانية وفرنسية .

* * *

ما مغزى هذه العجالة التاريخية التى سردناها . . ؟

هل نلغى التجارة . . ؟؟

هل نقف نشاط المال ، ورأس المال . . ؟؟

سؤالان وجيهان . . والإجابة عنهما آتية . . ولكن لنذكر هنا . . أن أساليب التجارة ورأس المال . . تقف على رأس الأسباب التى تمزق عالمنا .

ولننتقل الآن إلى آفة أخرى ، هى بهذه وثيقة الصلة . . وهى أيضاً لا تقل عنها ضراوة وفتكا .

مِنَ الحِلْفِ المقدس
إلى ميثاق الاطلسي

إذا بقيت الأخطاء دون تصحيح تعاقبت فى تسلسل حتمى لامفر منه.

والخطايا ، ينادى بعضها بعضاً ، وكلما تجمعت خلق تجمعها هذا ظروف نموها واستمرارها .

والتجارة فى حد ذاتها . لم تكن خطأ ولا خطيئة . . ولكن طريقتها فى العمل ، وتحوّلها إلى قوة إحتكارية طاغية ، وغازية ، جعل منها خطيئة كبرى .

ولقد أنجبت الخطيئة سلالة طويلة من الأبناء والحفدة . . وأكثر فلذاتها شراً ، وضراً ـ الأحلاف . .

وعبر التاريخ سار الوالد وما ولد . . . سارت التجارة والأحلاف ليفرضا على عالمنا . إرادة الشر والنزاع ، والحرب .

ولقدعرفت التجارة أهمية الأحلاف إبان الحروب الصليبية أيضاً .

فالمدن الأيطالية التى كانت تتزعم الاقتصادالأوربى ، والتى رأيناها تقف وراء الحروب الصليبية . . كان الخلاف كلما نشب بينها ، عالجته بلباقة الحريص على المغانم المشتركة ، والمصير المشترك .

وسنكتفى هنا بملاحظة سير الأحلاف خلال الأعوام المائة التى

سبقت الحرب العالمية الأولى . . تلك التى بدأت عام - ١٨١٤ - إثر هزيمة نابليون . .

إن الدرس الذى نتلقاه عن تلك الأحلاف فى الحقبة المذكورة . . أعنى منذ — ١٨١٤ — حتى يومنا هذا - لهو درس نافع وعظيم .

وسنرى كيف كان سير الأحلاف من عام ١٨١٤ ، إلى عام ١٩١٤ ، يتجه حتما إلى تلك الحرب الكبرى ، بعد أن أشعل فى طريقه إليها عشرات الحروب المحلية . . .

سنرى كيف أن الحرب العالمية الأولى لم تعلن عام — ١٩١٤ — . . وإنما أعلنت عام — ١٨١٤ — ، ونشبت عام — ١٩١٤ — .

لقد اتجهت - أوربا - فى سعار شديد إلى سياسة الأحلاف بعد هزيمة - نابليون - وسارت الأحلاف جنباً إلى جنب مع الاحتكار الطامع .

بعد أن دخل المنتصرون على نابليون مدينة باريس - قرروا ، وكانوا روسيا - بروسيا - النمسا - بريطانيا ، أنهم اجتمعوا لتوثيق الأواصر التى تربط الحلفاء ، ولحماية السلام :

وفى مؤتمر - فيينا - الذى تلى اجتماع - شومون - كادت أطماعهم المتصادمة تعصف بهم وبالمؤتمر .

وفى عام - ١٨١٥ - دعا « اسكندر الأول » قيصر الروسيا ،

إلى « الحلف المقدس » . . راجياً أن يجىء هذا الحلف تصحيحاً للموقف كله . وبداية لعهد جديد يقوم على السلام والخير ، وفى نفس الوقت يصون وحدة الحلفاء الكبار الأربعة ، لتزجر هذه الوحدة أى نابليون آخر تنشق عنه الأرض ذات يوم .

وانعقد الحلف المقدس ، ووقعته دول أوربا ، وتعهد المشتركون فيه أن يكون رائدهم « العدل ، والاحسان . ، والسلام » . .

وعلت أهازيج البشائر ، بأن القرن التاسع عشر ، سيكون قرن السلام والرشاد . .

فهل كان كذلك حقاً . . ؟؟

عجباً . . لقد جاء القرن التاسع عشر ، أكثر القرون ازدحاماً بالحروب . . وأكثرها إيغالا فى الاستعمار . . وأكثرها تحدياً للعدل وللإحسان وللسلام . . !!

فخلال هذا القرن . .

خاضت « بريطانيا » حروباً كثيرة فى افريقيا . . وحاربت إيران مرة . . وأفغانستان مرتين . . وخاضت ضد الصين حربين . . وضد بورما ثلاث حروب . . وخاضت هى وفرنسا وروسيا حرب القرم . !

وشنت فرنسا حروبا ظالمة فى شمال افريقيا ، واستولت فيها على

الجزائر ، ومراكش ، وتونس . . وشنت حربا أخرى فى افريقيا الاستوائية ، والهند الصينية ، واستولت عليهما . . !

وخاضت روسيا القيصرية ضد تركيا ثلاث حروب . . وضد إيران ثلاث حروب أخرى . . وشنت . . على الصين حربا استولت فيها على ـ فيلاديفوسك ـ . . !

وحتى إيطاليا ، التى كانت تحتلها النمسا ، لم تكد تتحرر من مستعمرها حتى شنت هى الأخرى حربا ضد الحبشة احتلت فيها ـ ارتيريا ـ . . وحربا أخرى ضد تركيا ، استولت فيها على ـ طرابلس ـ . . !

ولم تشأ « بروسيا » أن تقف متفرجة ، فحاربت النمسا . . ثم تحرشت بفرنسا ، وحاربتها ، ، وأخذت ملكها أسيراً ، واستولت على الألزاس واللورين . . واستمرأت الحرب فنقلتها إلى الصين وافريقيا . . !

وأدلت اليابان دلوها ، فشنت على الصين حربا . . !

وعزّ على النمسا أن تفقد إيطاليا ، وألمانيا . ، فيممت وجهها شطر البلقان ، واشتبكت مع تركيا . . !

هذه هى « حصيلة » القرن العشرين من السلام ، ومن العدل ، ومن الإحسان . . . « !!! »

إن أوربا التى صممت عام ١٨١٥ ، أن تمنع قيام أى بونابارته آخر يغزو ويفتح ويملأ الأرض دما وفسادا . .

أوربا هذه . . تحولت كلها إلى معامل تفريخ تتنافس فى تفريخ « بونابارتات » لا حصر لها . . !!!

والآن ، لننظر كيف حدث هذا ، وكيف ملىء القرن التاسع عشر بالحروب ، وبالبغى . .

وقبل هذا ، نسأل : لماذا تقوم الأحلاف . . ؟؟ إنها قطعا لا تقوم لحماية الخير المشترك للناس جميعا . . إذ لو كانت هذه غايتها ، لانتظم الحلف جميع الدول ، وجميع الأمم . . وحلف من هذا النوع لا حاجة بالناس إليه ، لأن منظمة دولية تلتزم قواعد الحق والعدل والقانون كفيلة بتحقيق الخير المشترك للشعوب . .

ولكن الأحلاف تقوم بين جماعة يريدون الظفر بغنائم مشتركة . .

ولما لم تكن الدنيا ، هى هذه الجماعة وحدها . . فسيقوم فى بعض أركانها الأخرى لا محالة ، جماعة أخرى لها مصالح مشتركة ، فتنتظم فى حلف آخر . . وهكذا . .

وهذه الأحلاف تشد أزر البغى والسطو لأن الدولة التى لا تقدر على البغى منفردة . . تواتيها الفرصة حين تجد لها حلفاء ونصراء .

ولعلّ النزاع المرير الذى قام بين « كليمنصو » ، و « ولسون » فى مؤتمر الصلح نشأ عن إدراك « كليمنصو » لهذه الحقيقة . . حقيقة أن فرنسا لم تهزم ألمانيا إلا بقوة حلفائها الكثيرين ، أمريكا . وبريطانيا . وروسيا . وإيطاليا . وغيرها . .

وهو غير متأكد من أن تتاح الفرصة لفرنسا مرة أخرى . . ؛ فهؤلاء الحلفاء التقوا على منافع ـ لا مبادىء . . وقد تتضارب المنافع غداً ؛ فلا يتفقون . .

وهكذا صمم على إرجاع النظر فى تشكيل عصبة الأمم كما يريد « ولسون » حتى ينتهوا أولا من تسويات الحرب ، وحتى تحدد فرنسا غنائمها منها .

نقول : إن الأحلاف تقوم لتحقيق مآرب خاصة لمجموعة الدول المتحالفة . وهى بهذه المثابة لا تفرز سوى عداوات وريب . وتحرض على مقاومتها ، وتحض على محاكاتها . . كما أنها بقيامها لحماية مصالح غير مشروعة ، ومواقف عدوانية غير عادلة . . تتخذ غالباً نهجا مضادا لحقوق الإنسان .

وهكذا لم يكد « الحلف المقدس » يبدأ متوخياً المبادىء الخيرة ، حتى عملت بريطانيا على إخفاقه ، فرفضت توقيعه . . ثم عملت جاهدة لتحويله إلى حالف آخر باسم « الحلف الرباعى » أعضاؤه الدول

الأربع نفسها . . ولم يخجل أصحاب هذا الحلف من أن يقرروا أن الفرض منه هو « مقاومة المبادىء والحركات الثورية » . . !

مع أن المبادىء والحركات الثورية يومئذ كانت تعنى محاولات الأمم الصغيرة ، والشعوب المستعبدة أن تتمتع بحريتها واستقلالها . . وتغادر مكانها كحلية فى تيجان الملوك والأباطرة الذين كانو يستعبدون معظم شعوب العالم يومذاك .

وتحول « الحلف الرباعى » بدوره إلى حلف آخر هو « المحفل الأوربى » وفى هذا الحلف ظفر طاغية النمسا « مترنيخ » بجر أعضاء الحلف جميعهم إلى قمع كل الحركات الجماهيرية الساعية إلى الديمقراطية ، والحرية . .

وهكذا أثمر هذا الحلف الثورات فى كل أوربا . . وهيأ أسباب حروب كثيرة ستنشب فى كل مكان ، حتى تفضى آخر الأمر إلى الحرب العالمية الأولى .

* * *

فى عام — ١٨٦٢ — نلتقى . « بسمارك » واقفاً يخطب فى البرلمان البروسى ويقول :

« إن تخومنا الحالية كما أقرها مؤتمر فيينا غير ملائمة »

« لنا . . وعلى بروسيا أن تستجمع قواها ، وتحل »
« مشاكلها بالدم والحديد . . . . »

وتبدأ فعلا جولة الدم والحديد . التى أنجبتها أحلاف فيينا ، وشومون ، والحلف الرباعى ، والمحفل الأوربى . .

يبدأ بسمارك بالنمسا .. ويجد نفسه فى حاجة إلى قوى تؤمن مستقبل الحرب بالنسبة له . . فيلجأ إلى الأحلاف ـ يحالف روسيا القيصرية ، ويحالف إيطاليا ، ويضمن حياد فرنسا وبريطانيا . . ثم يضرب ضربته . .

وتنتهى الحرب بفوز بسمارك . . فيولى وجهه شطر فرنسا ويهزمها هزيمة ساحقة . .

ويتلفت القيصر ، فيرى أن بسمارك قد أحسن استغلال تحالفه معه . . وأنه يبطش لا بقوته وحدها . . بل بقوة الحلف الذى يربطه وروسيا . . ؛ فيقرر هو الآخر أن ينتفع بمزايا هذا الحلف . . وفعلا يتقدم ويعلن الحرب على تركيا .

وفيما بعد تهتبل إيطاليا الفرصة ، فتهاجم هى الأخرى تركيا ، وتستولى على طرابلس . .

* * *

وينشأ حلف جديد ، اسمه « حلف الأباطرة الثلاثة » بين قيصر روسيا ، وامبراطور النمسا ، وامبراطور بروسيا .

وتتصادم المصالح بين روسيا والنمسا . فيتقوض الحلف ويقوم مكانه حلف « ألمانيا ـ النمسا » .

ثم يقوم حلف بين بريطانيا وإيطاليا . . تبارك انجلترا احتلال إيطاليا لطرابلس . . وتبارك إيطاليا احتلال بريطانيا لمصر . . !!

وتنضم النمسا لهذا الحلف . .

ويحدث رد الفعل ؛ فتسارع فرنسا وتبرم حلفاً مع الروسيا .

وفى نفس الوقت تبرم اتفاقاً سرياً مع إيطاليا ، المشتركة فى حلف مع بريطانيا والنمسا . . ويقوم هذا الاتفاق السرى على أن تحتل إيطاليا تونس ، وتحتل فرنسا مراكش . . !!

وتفاجأ بريطانيا بخيانة حليفتها إيطاليا . ، فتسارع إلى محالفة فرنسا . . وتبرم معها الاتفاق الودى المشهور عام ـ ١٩٠٤ ـ ويقضى بموافقة بريطانيا على احتلال فرنسا لتونس . واعتراف فرنسا بمركز بريطانيا فى مصر .

وتطمع بريطانيا فى مزيد من الغنائم والنهب . . ، فتبحث عن حلف جديد ، ما دامت الأحلاف هى الطريق الأمثل لهذا . .

وهكذا تنشىء مع روسيا حلفا عام - ١٩٠٧ - يقتسمان به بلاد الأفغان ، والتبت ، وإيران . . !!

وعند هذه النقطة يقف العالم كتلتين :

ألمانيا . إيطاليا . النمسا - فى جانب

بريطانيا . فرنسا . روسيا - فى جانب آخر

وفى هذين الحلفين تبلورت كل الأحلاف السابقة . بما تنطوى عليه من غدر ولؤم ووصولية . . واقترب يوم الفصل . .

وهكذا لم يطلع صباح ٢٨ يولية عام ١٩١٤ ، حتى كانت نواقيس الحرب العالمية الأولى تقرع مرجفة مزلزلة .

* * *

إن هذه اللقطة التاريخية التى سردنا فيها تسلسل الأحلاف ليست خالية من المغزى . .

وإن مغزاها لواضح مبين . . فهى ترينا كيف أن الأحلاف دائما أقرب الطرق إلى الحروب . . وكيف أنها تغرى بالحروب المحلية الصغيرة بين دولة وأخرى . . ثم لا تلبث حتى توقد نار حرب عالمية كبرى .

حدث هذا على النحو الذى أسلفنا ذكره بين يدى الحرب العالمية الأولى . .

وسنرى الآن . . نفس الشيء يتكرر و تتكرر معه نتائجه من عام ١٩ حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

* * *

فعندما اجتمع ولسن ، ولويد جورج ، وكليمنصوه فى مؤتمر الصلح ، لم يختلف مؤتمرهم كثيراً عن مؤتمر « فيينا » الذى انعقد قبلئذ بمائة عام بين اسكندر الأول ، وفردريك ، ومترنيخ ، وكاسلريه . . !

ولم تشفع عظام خمسة وعشرين مليونا من ضحايا الحرب العسكريين والمدنيين . . لم تشفع لدى السادة المجتمعين ليحسنوا الافادة من المحنة ، وليضعوا أسس سلام وعدالة . . بل إن « ولسن » نفسه بروحه الطيبة الخيرة . و بمبادئه السامية العادلة ، صار موضع مناورات المؤتمر ، وتندر المؤتمرين ، وهدفا لإساءة حلفائه ، سيما كليمنصو العنيد . . !

وراحت أوربا تنشيء أحلافا تلو أحلاف مهيئة الأسباب لحرب عالمية أخرى .

فسمعنا عن اتفاقية « سايكس بيكو » . . واتفاقية « لويد جورج - كليمنصو » بشأن سوريا ولبنان . .

وسمعنا عن حلف مناهضة الشيوعية بين ألمانيا واليابان ـ عام «٣٨» .

واتفاق الجنتلمان .. بين إيطاليا وبريطانيا ـ عام «٣٨» .

والحلف الدفاعي الهجومي بين المانيا وإيطاليا عام «٣٩» ثم محور المانيا إيطاليا ـ اليابان . . .

وسمعنا عن ـ الحلف البريطاني ـ التركي .

والحلف البريطاني الفرنسي ـ التركي . .

ثم حلف المانيا والاتحاد السوفيتي .

وكانت هذه الأحلاف جميعاً تنطوي على ظاهرة محتومة هي — الأعداد للحرب . .

وبسبب هذه الأحلاف تمت جميع الحروب وغزوات الخطف التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، وكانت سببها الأول .

فخطف إيطاليا للحبشة ، وغزو اليابان للصين ،وخطف هتلر للنمسا وتشكوسلوفاكيا . وبولندا . كل هذا تم في ظل هذه الأحلاف .

وكما حدث قبيل الحرب العالمية الأولى من تركز الأحلاف في معسكرين متقابلين . في كل معسكر تقف دول كبرى تجاه دول كبرى نظيرها . . حدث نفس الشيء قبيل الحرب العالمية الثانية .

ثم رأينا ألمانيا ، وإيطاليا ، واليابان ـ فى جانب

وبريطانيا ، وفرنسا ، ثم أمريكا فيما بعد ـ فى جانب آخر . .

وكان لابد من حرب عالمية ثانية . .

وفعلا ـ قامت الحرب . . . ! !

* * *

وكان حصادها فادحا . .

وعلى جبل عال من : ـ

اثنين وثلاثين مليونا ـ قُتِلوا فى معارك الحرب .

وعشرين مليونا ـ قتلوا فى الغارات :

وست وعشرون مليونا ـ قتلوا فى معسكرات الإبادة .

وثلاثين مليونا ـ من المشوهين .

فوق جبل عال من جثث هولاء الضحايا . . التقى زعماء العالم ، وتناقشوا ، واجتمعوا . .

فهل كانوا أكثر توفيقاً وسداداً من الذين سبقوهم فى مؤتمر «فيينا» ثم فى « مؤتمر الصلح » . . ؟ ؟

إذا كان التسابق على الأحلاف ، هو المعيار الذى نقيس عليه سَفَـه السياسة وطيشها . فكم نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن رصيد السياسة من السفه ومن الحمق لم تمسسه فواجع الحرب العالمية الثانية بسوء ولا نقصان . . « !!! »

أجل . . لقد بدأت جولة أخرى لسياسة الأحلاف وكأنَّ عشرات الحروب الصغيرة ، والحربين العالميتين الكبيرتين . . لم تكن كافية ، ولا تزال غير كافية لنشدان حياة بلا حروب، وبلا أحلاف .. !؟

* * *

● فى ١٢ مارس عام ١٩٤٨ . ألقى « ترومان » رئيس الولايات المتحدة يومئذ خطابا أعلن فيه أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة، تتوخّى مساعدة كل أمة تدافع عن نفسها ضد أى تدخل . .

● وبعد هذا الخطاب بخمسة أيام لاغير (!) وُقع فى بروكسل .. حلف دفاعى بين فرنسا ، وانجلترا ، وهولاندا ، وبلجيكا ، ولكسمبورج ..

● وبعد توقيع الحلف بساعات (!) وقف «ترومان» يخطب أمام الكونجرس مباركا الحلف وأهله ومعلنا أن « هذا التطور يستحق من الولايات المتحدة المساعدة الكامله » . .

● وبعد هذا الخطاب بأيام اقترحت لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس

الأمريكى اشتراك أمريكا فى مواثيق الضمان الجماعى لحماية السلام العالمى (!) . . .

● وبعد ذلك بأيام ، صار الاقتراح قراراً من قرارات الكونجرس وأعطى هذا القرار حكومة الولايات المتحدة حق « التوسع فى إنشاء التنظيمات الإقليمية » . . ؟

● وأخيراً ... وفى ٤ ابريل عام ١٩٤٩ وُلِـدَ الحلف الكبير «حلف الأطلسى » . . ووقعته أمريكا وكندا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا . وبلجيكا ، وهولاندا ، والدانيمرك ، ولكسمبرج ، والبرتغال ، والنرويج ، وإيسلندا . .

وكما أن معظم الأحلاف التى قامت فى ظل « عصبة الأمم المتحدة » كانت تنص على أنها تعمل داخل مبادىء العصبة وميثاقها . . فأن « حلف الأطلسى » والأحلاف التى ستقفو أثره . . لن تنسى أن تجامل « هيئة الأمم المتحدة » بتلك العبارة المهذبة .

«يؤكد أعضاء هذه المعاهدة إيمانهم بأغراض ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه (!) . . . . »

وكما أن معظم الأحلاف التى أشعلت الحروب السابقة ، كانت تنص على أنها دفاعية . . كذلك أحلاف ما بعد الحرب العالمية الثانية ، تقسم بأغلظ الايمان أنها « دفاعية » . . !

إن حلف الأطلسى . جاء امتدادا لسياسة الأحلاف السالفة . . امتدادا لمعاهدة «شومون» ، و «الحلف المقدس» و «الحلف الرباعى» وما جاء بعدها من أحلاف .

ولقد فتح الباب لأحلاف أخرى قام بعضها مقاومة له . . وقام بعضها الآخر تعضيداً له . .

فالاتحاد السوفيتى ، ودول الكتلة الشرقية ، رأت فى هذا الحلف تحدياً لها .

وفى ٣١ مارس عام ١٩٥٤ ، تلقت حكومات أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا مذكرة من الاتحاد السوفيتى يطلب فيها الموافقة على انضمامه إلى حلف الأطلسى . .

والاتحاد السوفيتى يعلم سلفا ، أن نصوص هذا الحلف ، لاتعطيه الفرصة التى طلبها . . ومع هذا تقدم بطلب الانضمام الذى كان نصيبه الرفض طبعاً . . ولقد أحرج هذا الرفض حلف الأطلسى وأعضاءه أيما إحراج . .

وفى ٢٣ أكتوبر عام ١٩٥٤ ، وافق أعضاء الحلف على ضم ألمانيا الغربية إليه . .

وألمانيا . عدو لدود للاتحاد السوفيتى ولأوربا كلها ـ وهى دائماً مصدر الخطر الأول لروسيا ولأوربا . .

هنا لك دعت روسيا لمؤتمر « الأمن الأوربى » .. ولكنه أخفق بسبب إعراض معظم الدول المدعوة إليه ، ورفضها المشاركة . .

وهنا . . وفى ١٤ مايو عام ١٩٥٥ ، ولد حلف كبير آخر على غرار حلف الأطلسى . . هو « حلف وارسو » . . بين الاتحاد السوفيتى ، وجميع دول أوربا الشرقية والديمقراطيات الشعبية .

وفيما بعد ، يقوم حلف البلقان . . والحلف التركى الباكستانى ، والحلف العراقى التركى . . وحلف بغداد . . الذى أسموه أخيرا « الحلف المركزى » . . وحلف جنوبى شرقى آسيا . . وتتهيأ الأمور اليوم لحلف البحر الأبيض المتوسط . . هذا عدا المحالفات الكثيرة التى تقوم بين الدول بصورة ثنائية . .

ما معنى هذا . . ؟

معناه أن سياسة الأحلاف والتكتلات ، لا تزال تحتل بؤرة التفكير . .

ومعناه أيضاً أن خطر الحرب والانقسام والدمار ، يعود فى صحبة هذه الأحلاف ليسلب العالم سكينته وطمأنينته .

أَرْبابُ الأَرض .. !

على صعيد السياسة العالمية ، لم يكن رأس المال،والأحلاف يعملان وحدهما لأفساد العلاقات الأنسانية ،وتدميرها . . بل كان هناك معهما، النزاع على السيادة . .

وفى عصور خلت ، كان النزاع على السيادة محليا ، ومحدوداً بعض الشيء . . يوم كان العالم عوالم مشتى متباعدة .

أما اليوم ، وقد امتزج عالمنا ، واقتربت مسافاته ، فالسيادة الآن تريد أن تشمله جميعا . .ومن ثَمّ فاتنزاع على السيادة اليوم خطر وعنيد.

مَن الدولة التى تسود . . ؟ من الدولة التى يكون لها الكبرياء فى الأرض . . ؟

هذان السؤالان مهَّدا دوما ، وفى كل العصور لقيام ما نسميه بالدول الكبرى .

والحرص على بلوغ هذا الوصف،سبب كثيرا من الشقاء لعالمنا . .

من أجل هذا تتحتم على البشرية الحديثة التى تنهض اليوم لبناء نفسها ، أن تشيع خرافة « الدول الكبرى » إلى القبر وتزف أرباب الأرض إلى مصيرهم المحتوم ، وأن يعلن العالم نفسه ، عالماً بلا أرباب .

ويبدأ هذا بأن نعرف الفلسفة التى تقوم عليها نظرية « الدول الكبرى » . .

هناك فى تاريخنا البعيد ،والقريب ، والمعاصر ، تعبير سياسى مهذب، اسمه « حفظ التوازن » . .

ولحفظ التوازن هـذا ، فى التاريخ السياسى لعالمنـا طرائف وذكريات . !

فبسمارك برر كل حروبه ، وغزواته بحفظ التوازن . . !

ومترنيخ ساد أوربا بطغيانه أكثر من ربع قرن ، وفرض عليها سيادة النمسا وربوبيتها باسم « حفظ التوازن » . . !

وبريطانيا انتهبت امبراطورية لا تغيب عنها الشمس باسم « حفظ التوازن » . . !

وفرنسا ملأت الأرض دماً باسم « حفظ التوازن » . . !

وكانت كل دولة كبرى تتنقل من حلف إلى حلف ، وتعادى اليوم صديقها بالأمس ، وتصادق غداً عدوها اليوم ـ لاباسم النفاق والوصولية ، والمنفعة . . بل باسم « حفظ التوازن » . . !

وحين طرد العرب من بلادهم وديارهم ، وأخرجوا من أرزاقهم وأقوات عيالهم فى فلسطين . . تقدمت دول كبرى وتعهدت باحترام هذا الوضع « ! » باسم « حفظ التوازن » . . !

وحين منع الغرب عنا أسلحة دفعنا ثمنها . برر هـذا المنع بـ « حفظ التوازن » .. !

ماذا يعنى « حفظ التوازن » هذا . . ؟

إنه يعنى الاحتفـاظ بحقوق الزعامة ، وحقوق السـيادة ، وحقوق التفوق والتأله ، لدول تريد أن تعيش دائماً فوق الدول ، وفوق الجميـع . .

وكل دولة كبرى تجعل شعارها « لا مكان لاثنين هنا » . . وهنا فى رأيها تعنى العالم . . تعنى أرض الله الواسعة .

ولهذا نجد الاتفاق بين دولة كبرى ، وأخرى مثيلها ، كان يقوم فى التاريخ كله على أسس تبعد تمام البعد عن المبدأ . . وعن العدل . .

ونجد أيضاً أن معظم ما حاق بالعالم عبر التاريخ كله ، من مصائب وكوارث ، تم على أيدى دول أسكرها وأعمـاها الشعور المتفاقم بالسيادة والاستعلاء .

والدول الكبرى ، هى التى أرهقت بسياسة الأنانية والكذب عالمـاً مسكيناً .

لقد اجتمع فى مؤتمر « فيينا » الذى أعقب الحروب البونابارتية — أربعة كبار — .

هم : روسيا ، بروسيا ، النمسا ، بريطانيا .. !

واجتمع فى مؤتمر الصلح الذى أعقب الحرب العالميـة الأولى ـ ثلاثة كبار ـ ..

هم : الولايات المتحدة ، بريطانيا ، فرنسا .. !

واجتمع غداة الحرب العالمية الثانية ـ أربعة كبار ..

أمريكا ـ روسيا ـ بريطانيا ـ الصين ـ .. !

* * *

أما الأربعة الـكبار الذين اجتمعوا فى مؤتمر فيينا ، فقد اقتسموا العالم قسمة ، أشعلت الثورات والحروب فى كل مكان .. بسبب إصرارهم على امتيازاتهم الظالمة ، وبسبب ضربهم بحقوق الدول الصغرى عرض الحائط .. ومن الطريف أنهم قالوا فى ديباجة اتفاقهم المكتوب يومئذ ، إنهم يفعلون هذا « حفظاً للتوازن الدولى » ... !

وأما الثلاثة الـكبار الذين اجتمعوا غداة الحرب العالمية الأولى فقد تنكروا لـكل حقوق الإنسان .. أو بتعبير أكثر أمانة وصدقا ـ نقول : إن اثنين منهم هما بريطانيا وفرنسا ، تنكرتا لـكل ما هو حق ، وسار سلوكهما . وكأنهما فى مؤتمر حرب ـ لا مؤتمر صلح .

والحرب التى كانتا تجلسان فوق كومة عالية من أنقاضها وضحاياها ، لم تلهمهما حكمة وعدلا ، فوقفتا توزعان العالم من جديد ، وضاع فى ضجة أطماعهما صوت حليفهما « ولسن » الذى حاول عبثاً أن يحمى حقوق الانسان وينقذها من أنياب حليفيه الكبيرين .. وكان عاقبة مسعاه ، وجهود بلاده فى الحرب ، أن تحداه « كلمنصو » وقال له ، وهو ضيف عليه فى بلاده فرنسا ..

« إذا لم توافق يا سيدى على ما نريد ، فإنك تستطيع »
« أن تعود إلى بلادك .. ! ! ! .... »

وانتهى مؤتمر الكبار الثلاثة نهاية مشابهة لمؤتمر الكبار فى فيينا ..

وأما الكبار الذين اجتمعوا غداة الحرب العالمية الثانية ؛ فقد بدأ بأسهم بينهم شديداً .. ولم يستطيعوا وهم يخططون عالم ما بعد الحرب، وينشئون « مجلساً للأمن » يحمى مصير العالم .. لم يستطيعوا أن يتخلوا عن كبريائهم ، فابتدعوا ما أسموه « حق الفيتو » ..

ولمن حق الفيتو هذا .. ؟ ؟

إنه للكبار وحدهم ..

ولقد حدث أن استعمل « الفيتو » لنقض قرارات ظالمة ، وأنقذ استعماله بعض الأمم الصغرى من مؤامرات كانت تحاك لها ..

ولكن حدث أنه كذلك استعمل ، ويمكن أن يستعمل لدعم

مراكز الوثوب والعدوان التى تخص بعض الدول الكبرى .

ومهما يكن من شىء ، فأن عجز الدول الكبرى على أن تلتقى فى غير ريبة ودخل ، هو الذى حرم العالم من أن تخلص له إحدى مؤسساته الكبرى من مثل هذه القيود المعوقة العجيبة .

إن إحساس دولة ما بأنها كبرى . . وحرصها على أن تظل كذلك، يحضها دوما على الاحتفاظ بمزايا هذا اللقب وهذا الوضع .

ولما كان وجود دول كبرى ، لا يتأتى إلا إذا كان هناك دول صغرى « ! » فأن ذلك يعنى لا محالة قيام تمايز مستمر وتفاوت دائم بين الكبرى والصغرى . .

ويعنى كذلك دعم الشروط التاريخية التى تستبقى الدول الصغيرة صغيرة . . لتظل معالم الامتياز والتفوق من نصيب الدول الأخرى الكبرى . . !

ولنسأل الآن سؤالا :

ماهى الاعتبارات التى تجعل الدولة الكبيرة كبيرة . . ؟

إن الأجابة عن هذا السؤال ، توضح لنا المضمون السياسى لاصطلاح « الدول الكبرى » .

وأمامنا مثال كبير الدلالة يصلح أن نبدأ به الاجابة ، بل يصلح أن يكون هو الجواب .

فالصين الوطنية ، التى كان يرأسها « شيانج كاى شيك » كانت إحدى الدول الكبرى غداة الحرب العالمية الثانية فهل كان لها من خصائص الدولة الكبرى شىء ، حتى استحقت هذا الوضع . . ؟

كلا . .

لم يكن لها جيش قوى ، ولا أساطيل . .

لم يكن لها صناعات ، لا خفيفة ولا ثقيلة ، . .

لم يكن لها موارد الدولة الكبرى . .

وشعبها ، كان متخلفا ، وأميا . . عشرة فى المائة منه هم الذين يقرءون ويكتبون . .

وأما الحكومة ، فقد شاع فيها من الفساد ، والانحلال ما جعل كبار القواد الأمريكان أنفسهم يصفونها بأقذع الأوصاف . .

فكيف إذن كانت إحدى الدول الكبرى . . ؟

ألأنها خاضت الحرب فى صف الديمقراطية . .

هناك دول كثيرة خاضت الحرب مع الديمقراطية ، وكانت

حكوماتها أكثر ولاء الديمقراطية وللحكم الصالح من حكومة السيد «كاى شيك» .. ثم لم تصر دولا كبرى .. بل لم تستطع أن تحتفظ بحقوق الدول الصغرى .. !!

على أن للمسألة بقية جديرة بإعمال الفكر .

فالصين الوطنية هذه اختفت ذات يوم ، وانكمشت فى جزيرة «فرموزا» ..

ونهضت «صين» أخرى تنتظم ستمائة مليون إنسان لها جيش قوى .. لها صناعات كبرى ، خفيفة ، وثقيلة .. لها زراعة حديثة ، وإنتاج هائل ..

ومع هذا ، فهى لم تأخذ مكانها بين الأربعة الكبار فحسب ، بل وحرمت من الحق الذى تتمتع به دويلات لايزيد تعداد أهلها عن ربع مليون نفس .. !

أجل حرمت الصين من أن تكون عضواً فى هيئة الأمم المتحدة .. !!!

فلماذا .. ؟؟

ألأنها شيوعية .. ؟؟

فى هيئة الأمم المتحدة دول شيوعية .. بل فيها جميع الدول الشيوعية ..

لماذا إذن .. ؟؟

هنا يبرز « حفظ التوازن » بمضمونه الخبيث ..

وهنا يتجلى المفهوم الصحيح لاصطلاح « الدول الكبرى » كما تفهمه وكما تريده بعض الدول الكبرى .

فالصين الشعبية ، أخلت بحفظ التوازن الاقتصادى للولايات المتحدة ..

والصين القوية ، أخلت حفظ التوازن السياسى فى آسيا بالنسبة للولايات المتحدة أيضاً ..

وإذن ، فليس جزاؤها أن تحرم صفة الدولة الكبيرة فحسب .. بل أن تحرم أدنى حقوق وجودها السياسى فلا تكون عضواً فى هيئة الأمم التى تضم جميع الأمم .. !

* * *

منذ القرن التاسع عشر ، وأمريكا تحافظ على الصين ، وتدفع عنها كل غزو .

وحين نطالع تاريخ السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى ذلك القرن وما بعده ، تستوقفنا ظاهرة هامة هى إصرار الولايات المتحدة على مقاومة كل محاولة للسيطرة على دول أمريكا الجنوبية . . وعلى الصين . .

وهذا الموقف واضح بالنسبة لأمريكا اللاتينية ، باعتبارها امتدادا طبيعيا للوحدة الأمريكية الشاملة . .

لكن ما سر هذا الاهتمام العظيم بالصين . . ؟

أجل . . لقد رُسمت السياسة الأمريكية فى آسيا على أساس حفظ الصين من كل تدخل . . وعلى أساس الأجهاز على اليابان كدولة متفوقة صناعياً وعسكريا . . !!

فلنحاول أن نفهم هذا اللغز العجيب . .

إن الصين سوق هائلة إذا أحسن إنعاشها وإذا ظلت بعيدة عن الارتباط بمُصَدِّرين آخرين مثل بريطانيا وفرنسا مثلا حتى يأتى دور أمريكا . . فان ذلك يكون خيراً عظيما للاقتصاد الأمريكى . .

واليابان دولة أسيوية ، ومتاخمة للصين . . فاذا نهضت عسكريا وصناعيا . . سبقت أمريكا إلى هذه السوق وحرمتها منها . .

هذا من جانب . .

ومن جانب آخر . . فأمريكا لا تقبل أن تقوم فى المحيط الهادى فى الشرق الأقصى ـ أمريكا أخرى ـ أسيوية . ، تضارعها أو تكون يوماً ما مصدر خطر عليها سواء كان هذا الخطر عسكرياً أم اقتصادياً .

ومن هنا ، قبلت ، بل عملت على أن تكون صين « كاى شيك » . دولة كبرى .. مع فقدانها لكل خصائص الدولة الكبرى . . ورفضت أن تكون الصين الشعبية مجرد عضو فى هيئة الأمم ، مع تمتعها بمعظم ، بل بكل خصائص الدول الكبرى . . !

وبقيام نظام اشتراكى فى الصين ، أفلت من التجارة الأمريكية ستمائة مليون زبون .

أليس هذا كافياً لفقدان التوازن .. وكافياً بالتالى لاضطهاد الصين إنقاذاً لما يمكن إنقاذه من حفظ « حفظ التوازن » ... ؟؟ !!!

هناك صحفى أمريكى شهير اسمه « ارنست لندلى » كان وثيق الصلة بالبيت الأبيض أيام « روزفلت » .

ولقد كتب يقول :

« لقد كان المستر روزفلت يذهب دائماً إلى أن الصين »
« ـ يقصد الصين القديمة ـ يجب أن تعامل كدولة »
« من الطبقة الأولى وأنها ستكون فى مدى جيل »
« أو جيلين من دول الطبقة الأولى بالفعل . . . . . »

ومعنى هذا الكلام من روزفلت ، أن الولايات المتحدة كانت تبنى تقديرها على أن الصين ستظل بحاجة إليها وإلى صناعاتها وإنتاجها مدى جيل أو جيلين .

ولكن ما حدث عام ١٩٤٩ ، من اختفاء آخر ظلال الصين القديمة ، وقيام حكومة اشتراكية فى الصين كلها خيب الآمال . . ودعا أمريكا إلى شد زناد حفظ التوازن شدا غير مأمون العاقبة .

ويمكن أن نلتمس تفسيراً آخر لموقف أمريكا من الصين واليابان . . فنقول : إنها ناهضت اليابان لعدوانها ونزعاتها الاستعمارية . . وإنها عاشت تدفع عن الصين كل غزو خارجى ، تمشياً مع مبادئها الإنسانية التى خلفها لها وشنطن ، ولنكولن ، ومونرو ، وولسن . .

أقول : يمكن أن نلتمس مثل هذا التفسير ، بل بودنا أن نلتمسه ، لو تستطيع الولايات المتحدة أن تقدم تفسيراً معقولا لموقفها من الصين الشعبية اليوم . . وإبطالها كل محاولة لضمها إلى هيئة الأمم المتحدة .

* * *

نحن لا نكتب هذا التجريح . . ولا يخطر ببالنا ونحن نسطر

كتاباً يهتف بالأخاء الإنسانى أن نخط كلمات تحمل الضغن ، أو تريد الإساءة . .

ولكن مواجهة الوقائع التاريخية أمر ضرورى لكل محاولة صادقة تريد إخراج عالمنا من أحقاده وخلافاته .

* * *

لقد كان ينبغى بعد قيام « هيئة الأمم المتحدة » ألا يبقى فى العالم سوى دولة كبرى واحدة ، هى « الأمم المتحدة » نفسها .

لست أعنى أنها ستحول إلى دولة ، بكل مقومات الدولة .. بل أعنى أنها كنظمة . يجب أن تأخذ وحدها المكان الأول والأعلى ، ويجب أن تنتقل إليها كافة حقوق السيادة العالمية ، لتقترب بنا من أيام الخلاص .

أما أن تقوم « أمم متحدة » . . ثم تنهض إلى جوارها ، بل ومن فوقها « دول كبرى » فإن مصالح هذه الدول الكبرى ستفرض نفسها على هيئة الأمم ، ولقد حدث هذا عشرات المرات .

فالأمم المتحدة ـ عجزت عن وقف اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها . ؛ لأن « دولا كبرى » أرادت هذا . . !

والأمم المتحدة ـ عجزت عن إفساح مكان لستمائة مليون صينى . ؛

لأن « دولا كبرى » أرادت هـذا . . !

والأمم المتحدة ـ لم تمنع ضرب كوريا . . بل ساهمت فيها . ؟
لأن « دولا كبرى » أرادت هذا . . !

والأمم المتحدة ـ لم تستطع حتى اليوم أن تمنع سباق التسلح . ؟
لأن « دولا كبرى » تريد هذا . . !

ليس يخطر ببالنا أن نضائل من قيمة الأمم المتحدة بسبب هذا العجز . . ولسنا ننسى المواقف الجليلة الباهرة التى أملت فيها مشيئتها . .

ولكننا ندرك أن خضوعها ـ أحيانا ـ لتأثير بعض الدول الكبرى ، يعتاق الكثير من جهدها البار ، ويعطل الكثير من رسالتها الجليلة .

وهذا ما نعنيه وما نحاول دحضه عنها .

* * *

وثمة خطر آخر يفضى اليه قيام دول كبرى . . ذلك هو : التسابق فى التسلح . .

يجب أن ندرك جيداً ـ أن المؤتمرات غير كافية فى وقف التسلح . .
فللتسلح مقدماته التى تجعل منه نتيجتها المحتومة . . ومن هذه المقدمات

وجود نظام عالمى يسمح بقيام « دول كبرى » . .

فعلى رأس خصائص الدولة الكبرى ـ يقف التفوق العسكرى .

وكل دولة تريد أن تكون كبرى ، تعلم علم اليقين أن ذلك رهن بتفوقها فى أسلحة الفتك ، وبناء الأساطيل ، وإعداد الجيوش .

هذه بديهة لاتحتاج إلى بيان .

ولقد عبر عنها أصدق تعبير « ونسن تشرشل » فى كتابه « الأزمة العالمية » حيث يصف زيارته لبورتلاند ، وانبهاره بسفن الأسطول البريطانى هناك :

يقول « تشرشل » :

« على هذه السفن العظيمة ، رأيت شوكة الامبراطورية »
« البريطانية وجلالها ، وسيادتها ، وقوتها . . . .

ثم يقول :

« افتحوا صمامات البحر . . ودعوا هذه السفن تغرق »
« تحت الماء . . وفى بضع دقائق . . فى نصف ساعة »
« على الأكثر ، يتغير وجه العالم ، وتتلاشى »
« الامبراطورية البريطانية كحلم . . ، وتتحطم قوة »
« سيدة البحار . . . . »

وعبر عنها « هتلر » حين قال :

« يجب أن نسبق العالم كله فى التسلح إذا أردنا أن »
« نحقق عظمة الأمة الألمانية . . . . »

وعبر عنها « موسولينى » بكلمته المشهوره التى ألقاها من فوق « فوهة مدفع » . . وهى :

« الويل للأمم غير المسلحة . . . . »

والتاريخ يمدنا بكل الوقائع والشواهد التى تقنعنا بأن قيام « دول كبرى » لا يمكن أن ينفصل بحال عن التسابق الجنونى فى التسلح . .

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ـ عرض «ولسون» نقاطه الأربع عشرة المشهورة . . وكانت النقطة الثانية منها ـ حرية البحار ـ ووقفت بريطانيا تناقشها طويلا . مما اضطر مستشار ولسن أن يعلن أن الولايات المتحدة لن تسلم عن طيب خاطر بسيادة بريطانيا على البحار . . كما أنها لا تسلم بسيادة ألمانيا فى البر ، وإذا أصرت بريطانيا على سيادة البحار ؛ فأن أمريكا ستبنى أسطولا ينتزع السيادة منها . . .

أبلغت حكومة لندن هذا التوضيح ؛ فثارت ثائرتها ، ووقف رئيس وزرائها « لويد جورج » يقول .

« إن بريطانيا العظمى ستنفق آخر جنيه لديها للاحتفاظ »
« بأسطول يفوق أسطول الولايات المتحدة .. أو أى »
« دولة أخرى . وليس فى وسع أية وزارة بريطانية »
« أن تبقى فى الحكم يوما واحداً . إذا هى اتخذت »
« موقفا مغايرا .... »

* * *

إن أمريكا ـ الدولة الكبرى ـ يجب أن يكون لها أسطولها الكبير وعتادها الكبير ..

ومن ثم سارعت فى غير كلل وفى غير بخل ، لبناء الأساطيل ، وإنتاج العتاد ..

واليابان ، ـ الدولة الكبرى ـ يجب أن يكون لها أسطولها ، وعتادها ..

وهكذا سارعت هى الأخرى تسابق بريطانيا نفسها حتى صار لها أسطول يماثل أسطولها .

وفى عام ـ ١٩٣٨ ـ ألقى رئيس الاتحاد السوفيتى « كالينين » خطابا فى إجتماع عمال السفن بمدينة « لينينجراد » قال فيه ..

« حتى اليوم ، لم تتفوق ، دولة على بريطانيا ويجب »

« علينا أن نتفوق عليها . . . . »
« إن انجلترا ، أقوى بلد رأسمالى ونحن أقوى بلد »
« اشترا كى إننا سندخل فى منافسة مع أقوى الدول »
« الرأسمالية . وكل منها يمتلك أساطيل كبرى . . »
« فعلينا أن ننشىء أسطولا يتفوق على أساطيلها »
« جميعاً . . . . »

وأعلن مولوتوف :

« أن الدولة السوفيتية القوية ، يجب أن تملك »
« أسطولا بحرياً جديراً بقضيتها الكبرى وبمصالحها »

وقام « الاتحاد السوفيتى » فعلا بإنشاء وزارة للأسطول . .
ولم يطل هلال عام ١٩٣٩ حتى كانت روسيا تملك من الغواصات أكثر مما تملك ألمانيا ، واليابان معاً . .

لقد فرضت تبعات التفوق نفسها على الدول الكبرى جميعاً . .
فأمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، واليابان . .
تتنازع الصدارة والسيادة ، ومقتضى هذا أن تحرز كل منها أقصى تفوق عسكرى ممكن . .

والاتحاد السوفيتى الذى يقف يومئذ وحده تجاه كل هذه الترسانات الكبرى ، يجب أن يحرز أقصى تفوق عسكرى ممكن . . ؟ ؟

وبهذه الطريقة ذهب ، ولا يزال يذهب من الأموال ما لو أنفق سدسه على تعمير العالم ، لجعل من أرضنا هذه فردوسا بهيجاً .. !

إن من المؤسف حقاً ، أن نتقبل نظام « الدول الكبرى » كما لو كان ضرورة تاريخية . . وأن نسكت عنه ، كما لو كان خيراً وبركة .

ونحن لا نسكت عنه فحسب ؛ بل نحاول تنمية وتضخيمه ببناء كتل نسيطر على كل منها دولة كبرى .

لقد أراد كاتب أمريكى كبير هو « والتر ليبمان » أن يعالج السلام العالمى ، فدعا إلى تقسيم العالم إلى جماعات ومدارات ..

ففى كتابه « الولايات المتحدة وغاياتها من الحرب » وقد نشر له ملخص كامل باللغة العربية يدعو « ليبمان » إلى إنشاء « جماعة الأطلسى » ، و « جماعة المدار الروسى » ، و « جماعة المدار الصينى » . .

ولقد اقتنعت حكومة الولايات المتحدة بدعوته ، وأنشأت « حلف الأطلسى » .

وهو يرى أن صلات الود والتعاون بين الجماعات الثلاث ، أو المدارات الثلاثة ، مدار الأطلسى ، والمدار الروسى ، والمدار الصينى . . كفيل بتوطيد أركان السلام .

وهو يصرح كذلك بأن مدار الأطلسى ستتزعمه دولة كبرى هى أمريكا . .

وتتزعم المدار الروسى دولة كبرى هى : روسيا .

وتتزعم المدار الصينى دولة كبرى هى : الصين .

ولا ندرى : هل لا يزال عند رأيه بشأن « المدار الصينى » بعد قيام الصين الشعبية ، أم لا . . ؟ « ! » .

مثل هذا التفكير الذى أعلنه أكبر كتاب أمريكا السياسيين ، والذى يؤثر تفكيره فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة تأثيراً ملحوظاً . . . مثل هذا التفكير لا يزال يسيطر على الإدراك السياسى لكثرة كاثرة من سكان الأرض . وليست خطورته فيما ينطوى عليه من خطأ فحسب ، بل وفى إضعاف الثقة بالمنظمات العالمية التى تحاول البشرية عن طريقها أن تضع حداً لمآسيها ومصائبها .

ففى ١٥ يونية عام ١٩٤٤ ، صرح الرئيس « روزفلت » أنه يعتمد فى صيانة السلام على :

« قوة مادية منظمة لهيئة عالميـــة تسيطر عليها »
« الدول الكبرى .. .. !! »

وكانت الدول الكبرى يومئذ هى : الولايات المتحدة ـ والاتحاد السوفييتى ـ وبريطانيا ـ والصين الوطنية . .

وصرّح « روزفلت » يومها بأن الدول الكبرى التي ستسيطر على الهيئة العالمية ، تكون بمثابة « بوليس السلام » . . وأما بقية أمم العالم ، فهي الشعب ، أو الجمهور الذي ينظمه هذا البوليس . . !

وقبل هذا بعام واحد - أعني عام ١٩٤٣ - اقترح وزير بحرية أمريكا لصيانة سلام العالم ، أن تقتسم أمريكا وبريطانيا بحار الدنيا . . . ! »

يتولى الأسطول الأمريكي حراسة غربي المحيط الأطلسي ، والمحيط الهادي بأسره . .

ويتولى الأسطول البريطاني حراسة المحيط الهندي ، والبحر الأبيض المتوسط ، وشرقي المحيط الأطلسي . .

هكذا تقود نظرية «الدول الكبرى» إلى التخبط الشديد والأكيد .. وفي الوقت الذي يحسب معتنقوها أنهم يصونون السلام ، يكونون موغلين في الأسباب التي تقوض السلام .

ولو أن الحرص على زعامة الدول الكبرى يأتي في المرتبة الثانية من محاولاتنا لصون السلام ، لهان الأمر بعض الشيء ..

أما أن يضعه أصحابه في المرتبة الأولى، فهذا ما يجعل تفنيده ودحضه واجبا محتوما .

لقد اعتمدت السياسة الدولية على نظام « الدول الكبرى » من مؤتمر فيينا عام ١٨١٤ ، حتى الحرب العالمية الثانية .. فماذا كانت العاقبة .. ؟

كانت حروبا موصولة .. وظلما ، وبغيا ، واستعماراً ..

وكانت الدول الكبرى .. بمناطقها وتكتلاتها ، عصابات خطيرة ملأت الأرض ، خرابا وبغيا . . أفنعاود الكرّة بعد كل تلك المثلات .. ؟ ؟

أفنترك الأوضاع هكذا .. دول كبرى تقود ، ودول صغرى تقاد .. ؟

لا .. وإن من أهم واجبات عالمنا الحديث أن يصفى هذا النظام تصفية كاملة . وأن يستقبل عصوراً جديدة لا تكون السيادة فيها للدول الكبرى .. بل للدول جميعا .. للبشرية جميعا .

* * *

ترى ، هل يعني حديثنا هذا ، تجاهل الظروف الحضارية التي تجعل ن بعض الدول ـ دولا كبيرة أى متفوقة تفوقا حضاريا .. وأخرى صغيرة .. أى بادئة فى الأخذ بأسباب الحضارة .. ؟

كلا . بيقين ..

ولسنا ننكر أبداً فضل بعض الأمم على بعض .. وسبق بعضها لبعض ..

وإنما ننكر « المفهوم السياسى » لوضع الدول الكبرى ..

هذا المفهوم الذى يعنى أوضاعا خاصة ، وامتيازات خاصة ، وحقوقا خاصة ، لهذه الدول المنعوتة بالكبرى ..

والذى يعنى بالتالى تقسيم العالم إلى سادة ، وتابعين .. إلى أوصياء ، وقاصرين ..

مِحْنَة الضمير السياسي

خلال الظروف التاريخية التى أسلفناها ، تشكل ضمير سياسى مراوغ ، ومريض .

ضمير تغذى بجميع الافرازات الضارة التى أفرزها تكالب المال . وسياسة الأحلاف ، وتشدان المآرب الخاصة .

لم يتح للضمير السياسى أن يؤدى واجبه تجاه المبادىء الانسانية الرشيدة التى اكتشف الانسان قيمتها ، وأهميتها . وانحرفت به ظروف تكونه شطر الكذب ، والغدر ، والوصولية . تلك العناصر الأساسية للسياسة العالمية من عهد بعيد .

نحن نؤمن بتقدم الانسانية ، ونؤمن بأن البشرية تسير إلى الأمام ، وإلى الأفضل دوما .

لكن ذلك لا يعنى أنها مبرأة من الآفات والنقائص ، كما لا يعنى أن ندفن رءوسنا فى الرمال حتى لا نرى تلك الآفات .

إن مواجهة الخطأ جزء من الصواب . وإدراك ماهو سىء يمثل الخطوة الأولى للظفر بما هو حسن .

وإذا كانت البشرية تتقدم دوما على الرغم مما تمتلىء به حياتها من مثبطات ومساوىء . . فكم سيكون تقدمها عظيما وباهرا ، إذا نفضت عن نفسها الكثير من تلك المثبطات .

والضمير السياسى العالمى ، إحدى القوى العاملة فى الحياة الانسانية

وإن له لمواقف طيبة تغرى بالاعتماد عليه فى تقويم كثير من العوج . . ولكنه يعمل بعشار طاقته لا غير . . لأنه لايزال مكبلا بكثير من رواسب الأزمان الخالية .

لقد حاق من به مؤامرات التجارة ، والأحلاف، والدول ذات السيادة والعلو . ما أشقاه وجرفه إلى الضلال. ولكننا حين نستطيع تنقيته من تلك الرواسب ، وحين تطهر السياسة نفسها من أكاذيبها ، وضلالها ، فان هذا الضمير قادر حينئذ على الاسهام فى بناء رأى عام عالمى ، يصون قيم حضارتنا ، ويؤمن مستقبل نوعنا . .

* * *

وعلى طريقتنا فى الفصول السابقة ، سنحاول هنا أن نكشف عن انحرافات الضمير السياسى ، لنرى مبلغ مايحدثه فى تقدمنا من تخريب .

وسنسير أيضاً عبر التاريخ الحديث ، لنرى كيف تشابهت ألاعيب السياسة ، وبهتانها ، وكيف تكرر نفسها فى مجالات السطو ، والغرور. وكيف تعاون الضمير السياسى المريض، مع رأس المال، ومع الأحلاف على استعمار الشعوب ، وتشتيت الصف البشرى .

* * *

* فى ـ عام ١٨٦٣ ـ نشبت ثورة بولندا الكبرى ضد قيصر الروسيا . ووقفت أوربا تؤيد الثورة .. لكن « بسمارك » وقف فى نشوز

عجيب يؤيد القيصر ضد شعب بولندا ، وضد ثورته ، وضد حقوق الانسان كلها . حتى لقد سمح لجيرش القيصر أن تخترق بلاده « بروسيا » متعقبة الثوار الذين هربوا إليها .

أما لماذا وقف « بسمارك » هذا الموقف ، فهنا نلتقى بمأساة الضمير السياسى لأوربا .

لقد كان « بسمارك » يعد نفسه سراً لغزو النمسا ، ومن بعدها فرنسا وهو يريد أن يأخذ إلى جانبه قيصر روسيا ، لكى يربح هاتين الحربين .

من أجل هذا رأى أن يُسلف للقيصر جميلا كبيرا هو تعضيده فى إطفاء ثورة شعب يطالب بحريته . .

فالحرية ، والحق ، والعدل ، وكل حقوق الانسان ، مسائل ثانوية بالنسبة لبسمارك ، وبالنسبة للضمير السياسى المنحرف . .

ولقد حدث مارسم بسمارك خطته . . فحين هاجم النمسا وقف القيصر معه . . ووقفت إيطاليا أيضاً معه ، بعد أن وعدها بالبندقية .

وفى هذه الحرب كذلك ، وقف بيارك احتلال فرنسا لتونس ، ويشجعها عليه ، لأنه يعلم أن احتلالها لتونس ، سيسخط عليها بريطانيا . . وراح يشجع بريطانيا على احتلال مصر ، لأنه يعلم أن هذا يسخط عليها فرنسا . . وهو يعلق على خلافهما آمالا كبارا . !

وبعد أن ينتهى من حرب النمسا ويهزمها ، يتجه شطر فرنسا ،

ويهزمها هزيمة ساحقة . . ولكنه قبل أن يبدأ الحرب معها يغرى النمسا بالزحف إلى البلقان ، ويعدها بالمساعدة . وذلك كى يتقى احتمال هجومها عليه أثناء حربه مع فرنسا . ! !

هذا هو الضمير السياسى الذى قاد قافلة السياسة ، حاملا لواء الأنانية المسعورة ، والغدر الرخيص . !

* * *

وثمة مثال آخر ، كله عبرة وحكمة ، هذا المثال هو « حرب القرم »

ذات يوم ، أرادت روسيا القيصرية أن تحقق أطماعها فى تركيا . . وبحثت عن سبب يبرر عدوانها التى وضعت خطته ، فماذا كان السبب .؟

لقد أعلنت أنها ذاهبة إلى تركيا ، لحماية المذهب الأرثوذكى ، الذى تدين به جماعات كثيرة فى الدول العثمانية . !

ورأت « فرنسا » أن تدخل روسيا باسم الدين قد نجح وآتى ثمره ، فقررت أن تأخذ نصيبها من الغنيمة .

ولكن بأى حجة كاذبة تتدخل ، وتعتدى ـ ؟ ؟

المسألة سهلة . . ! !

إن روسيا تدخلت لحماية الأرثوذكس . . فلتتدخل فرنسا لحماية الكاثوليك ... ! !

وهكذا تقدمت إلى تركيا بمذكرة ضافية ، ضمنتها ، أن « هرون

الرشيد » كان قد سلم مفاتيح المسجد الأقصى إلى « شارلمان » . . كما أن « سليمان القانونى » اعترف لحليفه يومئذ « فرنسوا الأول » ملك فرنسا . بحق فرنسا فى حماية كاثوليك الشرق العربى كله . . ! ! !

بقيت بريطانيا ، فماذا هى صانعة ـ ؟

لم تضيع بريطانيا وقتها . . « ! » ، وإذا كان هناك أرثوذكس تحميهم روسيا ، وكاثوليك تحميهم فرنسا ، فهناك بروتستنت ، ينتظرون حماية أمهم بريطانيا . . ! !

وهكذا تقدمت إلى السلطان عام ـ ١٨٤٠ ـ طالبة الأذن ببناء كنيسة بروتستانت فى القدس .

ولننظر كيف سارت المهزلة فيما بعد . . .

لقد أوحت كل دولة من الدول الثلاث إلى القساوسة والرهبان التابعين لمذهبها ، بأن يشاغبوا قساوسة ورهبان المذهبين الآخرين .

وبدأت الفتن تنشب بين قساوسة المذاهب الثلاثة ، بالقدس ، الأرثوذكس ، والكاثوليك ، والبروتستانت . .

وجاءت الخطوة التالية . .

فتقدمت روسيا إلى تركيا ، متهمة إياها بتحريض الكاثوليك والبروتستانت على رعاياها الأرثوذكس . . وعليها إذا أرادت

أن تثبت حسن نيتها ، أن تسلم فوراً مفاتيح كنيسة المهد فى بيت لحم إلى الرهبان الأرثوذكس .. !

واقتربت فرنسا ، فأرسل نابليونها الثالث ، تهديداً مباشراً إلى تركيا - إن هى أجابت طلب روسيا ، وإذا هى لم تكف عن اضطهاد رعاياها الكاثوليك « ! » ...

وأما بريطانيا ، فوقفت تمارس دورها المعروف .. فتحرض سلطان تركيا على روسيا وفرنسا .. وتحرض روسيا وفرنسا على تركيا - حتى نشبت حرب القرم المعروفة .. !

فى هذه الحرب ، يتكشف الضمير السياسى ، وتبدو حقيقته الشائهة .. فحتى الدين الواحد يستغل أبشع استغلال وتمزق أواصره بين أبنائه على هذا النحو الردىء ، من أجل الحصول على صفقة استعمارية هى « تركيا » .. !!

ولم تستنكف الدول التى كانت تتزعم الديانة المسيحية - وهى روسيا ، وبريطانيا ، وفرنسا .. لم تتورع هذه الدول عن تدنيس يديها بتمزيق أواصر الشعب المسيحى نفسه ، وتحريض كاثوليكه على أرثوذكه .. ما دام ذلك سبيلا إلى مطمع غير مشروع .. !!!
ترى هل اختلف الضمير السياسى فى منتصف القرن العشرين عنه فى القرن التاسع عشر ، قرن بسمارك ، وحرب القرم .. ؟؟

لكى نعرف ، علينا أن نستعير بعض الشواهد من الأمس الرطيب والقريب . . بل من الأيام التى نعيشها . .

فى عام ١٩٣٣ ، تسلم زمام الحكم فى ألمانيا دكتاتور عنيد أحمق . . لم يكد ساعده يشتد حتى أخذ يهوى على الدول الصغيرة يستعبدها ويسرقها ، وحتى أخذ ينادى بألمانيا فوق الجميع ، ويعد لحرب عالمية ، تنتهى بسيادة ألمانيا . .

كان الموقف السليم للدول التى تزعم أنها ديمقراطية ، وحامية حمى الديمقراطية ، أن تجنبه هذا الغرور فى بدايته . .

ولكن الضمير السياسى المريض تخلى عن المبادىء الخيرة ، فتخلت عنه العافية ، وتخلى عنه الرشد . . هـــذا الضمير دفع الديمقراطيتان الكبيرتان « ا » بريطانيا وفرنسا إلى ممالأة هتلر ، أولا — وموسولينى ثانياً ممالأة حصد العالم كله شوكها فيما بعد .

* * *

● لقد اجتاح هتلر « حوض السار » ذات صباح ، أو ذات مساء . . وفى استخذاء شديد ، ذهبت بريطانيا ووقعت معه معاهدة سرية « ا » .

وذات صباح ، أو ذات مساء آخر — سطا على تشكوسلوفاكيا بعد أن ازدرد قبلها النمسا .

أتدرون ماذا حدث . . ؟ ؟

لقد أرسلت الحكومة البريطانية « اللورد نسمان » إلى الحكومة التشيكية فى مهمة دبلوماسية ، وأذيع يومئذ أن مهمته تتمثل فى تنظيم مقاومة هتلر ، مع تشكوسلوفاكيا . . ثم اتضح أخيراً ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، أن السيد « نسمان » ذهب باسم الحكومة البريطانيه لكى ينصح حكومة تشكوسلوفاكيا ـ بالأذعان لكل مطالب هتلر . ! !

بقى أن نعرف أنه قبل غزو تشكوسلوفاكيا ببضعة أشهر . . ألقى الهر هتلر خطاباً سياسياً قال فيه :

« إن من أكبر الكوارث ، أن تتخلى انجلترا عن »
« استعمارها للهند . . . . ! ! ! »

معتدون يتعامل بعضهم مع بعض ، وضمير سياسى فقد كل مقومات الضمير الحر الرشيد . .

• وعندما اجتاح « موسولينى » بلاد الحبشة . . ماذا كان دور هذا الضمير . .

اجتمع « صمويل هور » وزير خارجية بريطانيا مع « لافال » وزير خارجية فرنسا ـ وأعلنا اعتراف دولتيهما بشرعية الاحتلال الإيطالى لجزء كبير من الحبشة . . ! !

• وفى عام ـ ١٩٣٦ ـ اجتمع الشعب الأسبانى فى انتخابات

حرة ورفع إلى مقاعد الحكم أعضاء الجبهة الشعبية .

وكان الأقطاع الأسبانى يلتهم مقدرات الشعب فى أمعاء بيس لها قاع ، ولا قرار .

وكان هذا الأقطاع فى يد الكنيسة الأسبانية التى كان أكثر رجالها يقفون وراء الرجعية فى بلادهم .

لهذا ، كان من الطبيعى لتصفية الأقطاع الذى قررت حكومة الشعب تصفيته ـ أن تواجه الكنيسة رغم جبروتها .

ولقد بدأ هذا فعلا . . وأخذت الاصلاحات الهائلة تتحقق . . وإذ الأرض تنشق فجأة عن « فرانكو » . . فيقود حركة بل ثورة ضد حكومة اختارها الشعب ، وتقوم باصلاحات يريدها الشعب « ! » . . أى ان ثورة « فرانكو » كانت ثورة ضد الديمقراطية ، فاذا لم تعاونها دول الديمقراطية ، فلا أقل من ألا تحاربها .

ومع هذا فانظروا ماذا حدث .

لقد انهالت المساعدات العسكرية من الفاشية الإيطالية ، والنازية الألمانية على حليفهما فرانكو . .

أما بريطانيا وفرنسا الديمقراطيتان ، فقد اتخذتا موقفا أسمياه « سياسة عدم التدخل » .

وكان هذا موقفاً تنكرياً . . أما فى الحقيقة ، فقد تدخلت تماسح فرانكو .

ذلك أن بعض المعونات أخذت تفد على حكومة الشعب الديمقراطية من الخارج . . فأوعزت بريطانيا لفرنسا كى تغلق حدودها عند جبال البرانس حتى تقطع الطريق على تلك المعونات . . ! !
هذا سلوك الضمير السياسى فى عالمنا . .

سلوك ، يقدم المنفعة على المبدأ . . والخوف على الواجب . . والباطل على الحق . .

سلوك سببه « تقوقـُع » الضمير السياسى داخل دائرة ضيقة من مصالح خاصة ، ونزعات عنصرية . . وهكذا اختفى الضمير الأنسانى رويدا رويدا . . وأخذ مكانه الضمير السياسى المتعصب المكذوب .

ولو أن الضمير الأنسانى لم يختف ويختنق فى زحمة الأطماع . . لو أنه بقى مكانه يقودنا ، ويمسك بمصايرنا لامتنع قيام الحروب . .

أجل . . . لو أن اليابان حين استولت على منشوريا عام ١٩٣١ - وجدت الضمير الأنسانى متمتعا بسلطاته ، متحديا عدوانها - لما غزا موسولينى الحبشة عام ١٩٣٥ . .

ولو كان الضمير الأنسانى فى مكانه ليزجر موسولينى عن غزو الحبشة - لما زحف هتلر على أرض الرين عام ١٩٣٦ ولما زحفت

اليابان على الصين عام ١٩٣٧ ، ولما زحف النازى على النمسا وتشكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ — ولما قامت بعد هذا ، وبسبب هذا ، الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . .

لكن الضمير الانسانى لم يكن موجوداً . . وكان هناك الضمير السياسى الموبوء بوباء أوربا ، والحامل لكل ميكروبات الاستعمار .

والدول المعتدية ، تعلم أن علف هذا الضمير — هى المساومة . . وهكذا لكى يظفر هتلر — مثلا — بسكوت بريطانيا على سرقاته . . ليس عليه إلا أن يُعلن أن احتلالها للهند بركة ، وأن جلاءها عن الهند كارثة . . « ! »

ولو كانت مسايرة بريطانيا ، وفرنسا للفاشية والنازية ضربا من ضروب التعاون الإنسانى ، لكان عملا طيبا . .

فقد بارك العالم كله هذا النوع من التعاون بين دول مختلفة النظم اختلافا بعيدا .

فى عام ١٩٤٠ خطب « روزفلت » أمام الكونجرس الأمريكى فأعلن « أن مسافة الخلف واسعة جدا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى » . .

ثم لم يمض عام واحد ، حتى كان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة

يعملان معا وفى صف واحد ضد الغزو النازى .

لكن الذى حدث بين بريطانيا وفرنسا من جانب ، وألمانيا وإيطاليا من جانب آخرين . . لم يكن تعاونا على الخير . . بل تبادُلا للمنافع المنهوبة .

ولقد انتقلت العدوى يومئذ إلى « عصبة الأمم » فلاذت بالصمت المريب تجاه كل العدوان الذى كانت إيطاليا ، وألمانيا ، واليابان تقوم به — مما جعلها تعيش عمرها القصير . « وكالة حكومات » ، لا جمعية أمم وشعوب . .

* * *

ومعنى هذا بداهة ، أن أية منظمة عالمية ، تنهض لحماية المصير الإنسانى ، ستصير عاجزة حتى عن حماية نفسها ، ما دام الضمير السياسى العالمى .، وفى خدمته كل القوى الشريرة التى تسانده ، قادرا على التسلّل إليها ، وعلى التحكم فيها .

إننا نعجب كثيرا لموقف « عصبة الأمم » بالأمس من حقوق الإنسان التى كانت تُهدر جهارا عَلَننا ، وهى ساكتة أحيانا ، وشريكة فى الوزر أحيانا أخرى . .

ونعجب لموقف « هيئة الأمم » اليوم من الحقوق الكثيرة المهدرة

لبعض الأمم والشعوب . . ووراء هذا الموقف للعصبة والهيئة ، تقف أزمة الضمير السياسي على رأس الأسباب التي تثمر هذا الموقف الكئيب.

إن هناك ـ لا ريب ـ سيطرة الدول الكبرى ، أو بعضها على المنظمات العالمية . . وهناك نفوذ أصحاب المصالح ، وأقطاب الصناعة والمال في العالم .

ولكن ، كل هذه القوى ، كان من المستطاع تهنهة الكثير من شرها ، ولا أقول ـ كل شرها ـ لو أن الضمير الذي تستهديه المنظمات العالمية ، كان أكثر نقاء ، واستبسالا ، وأمانة .

لكنه ، ومن واجبنا أن نعترف بهذا في غير مواربة ، ضمير مثقل بالضعف ، وبالآفات .

وهو لا يستطيع أن يكون إلا هكذا ، ما دام يعيش داخل ظروف منحرفة ، وما دام يستمد غذاءه ، وهواءه من تلك الظروف الآسنة العكرة الخانقة . .

فما السياسة التي تغذى هذا الضمير ، وتَصُبُّ فيه . . ؟؟

إنها ـ كما رأينا من الشواهد السالفة ـ كرنفال هائل مضحك ومزعج معاً من الأكاذيب ، والأحابيل والمؤامرات .

وهي في أطهر صورها ـ أن كان فيها طُهر على الأطلاق ـ انعكاس

للشكوك ، والمخاوف ، والأطماع التى تنتاب الدول ، وتتحكم فى تفكيرها السياسى .

ومنظمة عالمية ، تمثل قيام مجتمع إنسانى واحد ، لا يمكن لها أن تحيا ، وتعمل ، وفى داخلها ضمير يتغذى بتلك السموم .

لقد عاش عالمنا الحديث على آلاف الوعود بأنه لا حرب . . ولا ظلم . . ولا استعمار . .

ومع هذا ـ فلم تكن قاعدة حياته إلا الحرب، والظلم ، والاستعمار . . وكانت فترت السلم ، والعدل ، والحرية . . مجرد لحظات عابرة . . كأنها أخطاء تورطت السياسة فيها ، ثم لم تلبث أن تخلت عنها وعادت لتصحيح موقفها . . . ! ! !

ويحـــدث هذا ـ دوما ـ لأن الضمير السياسى الملتاث هو القائد والرائد .

وليس شر ما فى المسئلة أن ضميراً مريضاً شريراً يتحكم فى مقدراتنا ومصايرنا ـ بل أكثر من ذلك شراً ، غفلتنا ، وضعف إدراكنا للخطر الفادح الذى يمثله هذا الضمير .

إننا لا نضع العين عليه ، كعامل من أكثر العوامل المخربة فى صفوفنا البشرية ـ ومن ثمّ فلا نبذل جهداً لردعه وتقويمه . . ومن ثمّ مرة

أخرى ـ فهو يعمل فى حرية كاملة وطمأنينة أكيدة . . !

فى ميثاق الأمم المتحدة نص يلزمها بـ « اتخاذ تدابير مشتركة للقضاء على كل مايخل بالسلم » . .

ولكن . إلى جوار هذا النص الطيب ، نجد مبدأ يحتم « إجماع الدول الخمس الكبرى على كل قرار يصدر عنها » . . !

كيف إذن يمكن اتخاذ تدبير ما لحماية السلام والأمن إذا كان المتهم إحدى هذه الدول الكبرى .

وما سر هذا التناقض البين . . ؟

إنه الضمير السياسى ، الذى يعمل بأهواء عدة . . ويناط به التوفيق بين أطماع ومصالح متنافرة . .

والذى يحاول دوما وفى تخبط مستمر . أن يأكل الكعكة ، ويحتفظ بها فى نفس الوقت . . !

إنه إذا أحسنا به الظن . . يريد أن يوجد ظروف السلام ، بشرط الأبقاء على كل مغانم الحرب . . !

* * *

إن آفة الضمير السياسى لعالمنا ، تتمثل فى انفصاله عن قاعدته . .

وقاعدته هى العالمية القائمة على أساس حقوق الإنسان . .

فحاشية الضمير ، وإقليميته دفعته إلى إعلان شأن الأنانية والتعصب ، وإلى تبرير كل الجرائم التى تثمرها الأنانية والتعصب .

ويوم آمن هتلر بمخلفات أسلافه الألمان ، من فختة وشبنجلر .. إلى بسمارك وغليوم الذين هتفوا بالتفوق العنصرى للألمان ..

ويوم نفخ هو فى هذه المشاعر . وأحالها الى عقيدة فولاذية ..

ويوم ملأ أفئدة الألمان بأنهم « فوق الجميع » ووعدهم بألف عام يسودون فيها الأرض ، ويُوجهون الدنيا .

يومئذ ـ كان الضمير الملتاث يُدبر فى قساوة فاتكة أسوأ مصير للألمان ، وللعالم كله ..

وكذلك يوم تركزت مفاخر الإنجليز ، ومصالحهم ، وأمجادهم فى « امبراطوريتنا » .. تَشكَّب ضميرهم كل حق .. ومجدّ كل باطل .. وصارت كلمة دزرائيلى المشهورة .. « أُوثر على حقوق الإنسان .. حقوق الإنجليز » .. صارت هـذه الكلمة شعارهم ودستورهم وموضوع حياتهم .

والظلم الكبير . بل الأكبر الذى جُرِّع أهل فلسطين كئوسه المريرة ، ما كان إلا ثمرة تمجيد الذات وتمجيد العنصرية ، والعمل داخل نطاق الأنانية البغيضة ، والقومية المقفلة .

وهكذا تتزاحم الأمثلة والشواهد ، متماثلة متشابهة ، لتضع أعيننا

على أخطر آفاتنا . . تلك هى انفصال الضمير السياسى عن قاعدته . .

لو أن هذا الضمير يحس المشاكل إحساساً شاملا عميا ، وينبض بمصالح العالم مجتمعة . لا بمصالح قطاعات خاصة ، لجنّب العالم كثيراً من الحروب ، وكثيراً من الفتن والاضطرابات .

ولو أنه كذلك يستهدى المبادىء الإنسانية العامة لـبرئت أرضنا من الظلم ، ولترعرعت فيها مباهج الحياة . .

* * *

إن انفصال الضمير عن قاعدته التى عرّفناها فيما سبق ، لم يجعل السياسة العالمية أنانية وحسب . . بل جعلها ضرباً من الشعوذة والدجل ، يلبِس الحق بالباطل ، ويَرُوض الناس على الشكّ فى كل القِيَم والوقائع .

والشعار السياسى القائل « اكذب . . واكذب . . ثم اكذب دائما ؛ فلا بد أن تجد من يصدقك » . . هو التعبير اللفظى لأخطر عمليات الشعوذة السياسية التى أشاعت ، ولا تزال تشيع فى عالمنا الاضطراب والقلق ، وفُقدان الثقة .

كثيراً ما تلبس السياسة مُسوح العدالة والخير ، فينخدع الناس لها ، حتى إذا حققت أغراضها الخبيثة ، أو كادت . . تكشّف

زيفها ، ولكن بعد فوات الأوان الذى كان مناسبا لدحض مناوراتها .

ومبادىء الحرية ، والحق ، والسلام ، ليست سوى مطايا ذُللا تمتطيها السياسية لتحقيق مآربها .

فى عام « ١٨٢٢ » تُوِّجت بريطانيا بغار الشرف والمجد ، لأنها أبلت بلاء عظيما فى سبيل إقرار « مبدأ مونرو » القائل « أمريكا للأمريكيين » ، والذى منع التدخل فى الشئون الأمريكية ، فمنع بهذا محاولة النمسا حمل الدول على التدخل لقمع حركات التحرر ، وثورات الاستقلال .

كانت البلاد الخاضعة للنمسا يومئذ تتفجر رغبة فى الاستقلال والحرية . . وكانت هى تعقد المؤتمرات لتقرر عدم مشروعية هذه الانتفاضات .

ووقفت روسيا ، وبروسيا ، وفرنسا - مؤيدة النمسا . . بل ومرسلة جيوشها إلى كل بلد ينادى بحريته ويهتف باستقلاله .

وفجأة وقفت « بريطانيا » ضد حلفائها منادية بعدم التدخل فى شئون الدول الداخلية . . وانبهر العالم يومئذ بهذا الموقف ، وصاح من فرط النشوة ، وروعة المفاجأة : « لقد هُدِيَت بريطانيا » .

فهل تعرفون السر الذى كان وراء موقف بريطانيا هذا . . ؟؟

لقد كان للنمسا مستعمرات كثيرة فى أمريكا الجنوبية . .

وكان بعض هذه المستعمرات ، قد بدأ الثورة ضد استعمار النمسا . . فمبدأ « التدخل » الذى تنادى به النمسا ، سيمكنها من إطفاء هذه الثورات . . ومبدأ « عدم التدخل » الذى تنادى به بريطانيا سيجعل النمسا تقف وحـــدها أمام الثورات المعادية لها ، والتى اندلعت فى كل أنحاء امبراطوريتها . .

وبريطانيا حريصة كل الحرص على ضعضعة النمسا وإضعافها ، وأيضاً على طردها من أمريكا الجنوبية . .

وهكذا تبنّت مبدأ « عدم التدخل » باسم حقوق الإنسان طبعاً . . «!» ووقف وزير خارجيتها « كاننج » يُعلن فى إنسانية مفيضة أن « بريطانيا الدستورية الحرّة ، ليس من صالحها مساندة الرجعية ، والملوك المستبدين » . . «!» . ، وأوعزت بالفعل إلى « مونرو » رئيس الولايات المتحدة يومئذ ، كى يعلن أن « أى تدخل أوربى فى أية بقعة من أمريكا ، ستعده أمريكا عملا عدائياً ، وستقاومه ولو بالحرب » . .

وهكذا انتصرت بريطانيا ، وساد مبدأ « عدم التدخل » سيادة تامة .

والآن ، فلننظر بقية النبأ ، فإن فيه من الطرافة . قدر ما فيه من العظة .

عندما جاءت الحرب العالمية الأولى ، كانت أمريكا . . لاتزال

سائرة على مبادىء « مونرو » . . لاتتدخل فى شئون أوربا ،ولا تتدخل أوربا فى شئونها . . هذا المبدأ الذى أقنعتها به بريطانيا ، وحملتها عليه عام « ١٨٢٢ » . .

أفتظل أمريكا بعيدة عن هذه الحرب العالمية . . ؟

إنها إن فعلت ،كان ذلك نكبة على بريطانيا التى تتوقع هزيمة كبرى إذا لم تخفّ أمريكا بأمكانياتها لنجدتها ومشاركتها الحرب ..

ولكن « مبدأ عدم التدخل » لايزال قائما .. وبريطانيا هى صاحبة الفضل فيه ، فماذا تصنع ..؟؟

إن السياسة ، والسياسة البريطانية بصفة خاصة لا تعرف المبادىء إنما تعرف المصالح .

ولقد كان مبدأ مونرو حميداً ، يوم كان يحمى مصالح بريطانيا أما اليوم ، «فليسقط مبدأ مونرو » ، و«لتحى مصلحة بريطانيا .. »

وهكذا أخذت بريطانيا تتوسل بكل دهائها لهدم مابنته بالأمس . وتجعل من مبدأ عدم التدخل خيانة لحقوق الإنسان ، وجريمة فى حق أمريكا نفسها ، بعد أن كان أقدس الواجبات . ، فأوعزت إلى الصحافة الأمريكية،وكل أجهزة الدعاوة والاثارة لتنادى بأن .. عدم التدخل، هروب وانتحار .. وأن هزيمة بريطانيا فى الحرب ، ستكون هزيمة لأمريكا ، لأن الديون الهائلة التى تدين أمريكا بريطانيا بها ، ستضيع

مع هزيمة بريطانيا . . . ولما انتصرت فى روسيا ثورتها الشيوعية عام « ١٩١٧ » وقررت حكومة « لينين » الانسحاب من الحرب وجدت بريطانيا الفرصة سانحة لإنزال الرعب ـ كل الرعب ـ فى قلب أمريكا ، وأقنعتها بضرورة التدخل ، فدخلت الحرب يوم ٦ أبريل عام « ١٩١٧ » . .

إن هذا المثال يتكرر فى الدنيا كل يوم . . ونُبصر دولا تنادى بالمبادىء الإنسانية السامية . . ونبصر ساسَةً يتخذون مواقف ، ظاهرُها السموّ ، والبطولة الإنسانية ، والجلال ؛ ثم هى منطوية على نقيضها تماماً . .

كما نبصر مواقف يَتَّسِم ظاهرها بالإخلاص لحقوق الإنسان ، وهى فى حقيقتها مؤامرة محبوكة وخبيثة لقمع هذه الحقوق وتضليل مَسْعاها . .

* * *

إن المبادىء التى يمكن أن تُصاغ منها سياسة صالحة ، هى الجديرة اليوم بالسيادة ، والذيوع . حتى يمكن الظفر بضمير سياسى جديد يتوخى المبدأ ، لا المنفعة . . ويحترم الحق ، لا الباطل . . ويعمل فى خدمة البشرية مجتمعة . لا فى خدمة قطاعات متنافرة . ، وإقليميات متناحرة . .

.. والرِّماحَ مَناجِل !

تنبأ بسلام الأرض ومَن عليها ، كثيرون من أبنائها البررة الذين ساروا فوقها هَوْنا .

وعمل لهذا السلام كثيرون بعقولهم ، وبسواعدهم وبمساعيهم الجليلة النبيلة . .

وهناك على ناصية الطريق من بعيد . . نرى إنسان بارّ ، بُشرَى مضيئة .

إنه « اشعياء » أنبأ أن عالما جديداً سُيهلّ زمان ، وتُطلّ أيامه يقف الناس جميعاً فيه إخوة متحابين .

« يطبعون سيوفهم سِككَا »
« ورماحهم مَناجل . . . »
« لا ترفع أمة على أمة سَيفا »
« ولا يتعلمون الحرب فيما بعد »

كان سلام العالم « رؤيا » الذين استشرفوا المصير الانسانى ببصائرهم المجلوّة المشرقة المُلهَمة . .

وكان « أمل » الذين استقرءوا التاريخ ، وتتبعوا حركته ؛ فرأوا فيه محاولة صامدة وصاعدة . .

وفى عصورنا هذه قوى الرجاء ، وازدهر الأمل . وأوشكت

« الرؤيا » ، أن تصير « رؤية » . . وأصبحت قضية الأخاء البشرى موضع اهتمام الناس جميعاً .

وهذه الصفحات على الرغم من الحمية المتبدية فى بعض كلماتها . . ليست إلا تغريدة فى مهرجان الأمل العظيم .

ولكنها تكون تغريدة خالية من المعنى ، ومن البهجة الصادقة ، لو أننا تجاهلنا عوامـــل الفرقة والتمزق ولم نكشف عنها قناعها وغطاءها ، تمهيداً لمقاومتها وعزلها عن الحياة الانسانية .

ولقد أتينا على ما نرى أنه أكثر عوامل التفرقة شرا . وقلنا إنها .

- رأس المال الهادف إلى الاحتكار والسيطرة . .
- الأحلاف التى وقفت وراء معظم الحروب ، والسرقات . .
- تقسيم العالـم إلى « دول كبرى » لهـا كل شىء ، و « دول صغرى » ليس لها من الأمر شىء . .
- انحراف الضمير السياسى عن المبادىء الانسانية ، وإيثاره المنفعة على الواجب . .

ولقد كان التاريخ شاهد صدق على الدور الوبيل الذى لعبته هذه الآفات الأربع ، فى تمزيق وشائج الأخاء الانسانى ، وفى تضليل إرادة التفاهم ، والتجمع ، والالتقاء . . !

والآن ، نود أن نُـوفـق إلى وضع خطة نتلافى بها زحف هذ

العوامل الضارة . . وإلى اختيار نهج يقترب من الغد العظيم ولسنا نزعم أننا نملك الخطة الكاملة ، ولا نُقدم النهج الأوفى .

وإنما هى « إيماءة » إلى الطريق .. بيد أنها بما تنطوى عليه من صدق المحاولة، وإيثار الفهم على الظن ـ يمكن أن تكون ذات نفع عظيم

لقد أبانت الصفحات السالفة من الكتاب ، المخاطر المهظة التى تُعرّضُنا لها الآفات الأربع .

فكيف السبيل إلى نفيها من حياة البشر ..

وكيف السبيل إلى جمع الشتات البشرى ، والاقتراب من عصر العالمَ الواحد والإنسان المُحبّ الودود .. ؟ ؟

هذا هو ما سنحاوله فى هذا الفصل الأخير من الكتاب .

* * *

موقف نزاع ..

ونبدأ محاولتنا بتصور العالمَ علىَ الطبيعة .. لافوق الخريطة .

وأول شىء ستقع عليه أعيننا ، وأكثر مظاهر هذا العالمَ أثارة لانتباهنا ، هى مسافة الخُلف الحافلة بأسبابها بين معسكرين شهيرين .

(ا) معسكر الرأسمالية ، أو الغرب .

(ب) معسكر الاشتراكية ، أو الشرق .

وبالتالى ـ بين الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ..

ونحن نؤثر أن نبدأ محاولتنا من هنا .. أعنى من مواجهة هذا الموقف الذى أخترنا له كلمتى « موقف نزاع » ..

وليس سبب هذا الاختيار فى البدء ، أن روسيا وأمريكا دولتان كبيرتان .. أو أن الرأسمالية والاشتراكية مذهبان أوحدان ..

فنحن كما أوضحنا من قبل ، وكما سنذكر من بعد ، لا نؤمن بتقسيم العالم إلى كبير وصغير ، ولا بتقسيم المذاهب والفلسفات أيضاً .

فلجميع الأمم حقوقها المتكافئة .

ولجميع الفلسفات حقوقها المتكافئة .

ولا فضل لأمة على أخرى ولا لفلسفة على أخرى إلا بقدر ما تسدى من يد للسلام ، وللخير ، وللعدل ، وللحقيقة ، وللإخاء .

ولقد قلنا إننا ننظر إلى عالمنا اليوم على الطبيعة . .

وعلى الطبيعة ، وفوق صعيد الواقع ، نجد دولتين انتهت إليهما ـ وَفق الأساليب السائدة من زمان ـ زعامة العالمَ فى عصرنا هذا . .

وسواء تقبلنا هذه الزعامة أو رفضناها ، فهى من جهة الواقع ليست خُرافة ولا وهما .

إن ظروفا تاريخية معروفة ، دفعت كلتا الدولتين إلى الصّدارة فى عصرنا هذا .

ونقول « فى عصرنا هذا » لأن أحداً لا يعلم ماذا تكون الأمور

غدا ، إذا ظلت المعايير التى تجعل فى العالم صغاراً وكباراً ، قائمة وسائدة .

وتصفية الموقف بين روسيا ، وأمريكا .

وبين الرأسمالية ، والشيوعية .

هذه التصفية ـ لو تمت ـ تكون نقطة الانطلاق العظيم نحو عالم لاتأثيم فيه ولا غِلّ .

ولكن يجب أن تتم التصفية وَفق المبادىء التى تخدم المصير الانسانى المشترك ـ لا وَفق القواعد التى تخدم مصاير خاصة . .

ولكى يتم هذا على الوجه الحق ، لا ينبغى أن تُترك معالجة مابين الدولتين ، للدولتين وحدهما .. بل ينبغى أن يسهم العالم كله بنية صادقة فى إتمام هذه التصفية .

وتصفية مابين الدولتين ، تقتضى اكتشاف ماكان بينهما من تاريخ مشترك ، واكتشاف عوامل الاتفاق والقربى التى هى موجودة فعلا ، والتى تستطيع أن تجمع بينهما فى عمل مشترك عظيم . .

وتصفية مابين المذهبين ، تقتضى معرفة البناء التاريخى لكل منهما ، واكتشاف التخوم المشتركة بينهما ، وفهم فلسفة التوقيت التى تعمل فيهما وتختار بينهما .

لقد ألفنا أن نعطى عوامل الخلف من حرصنا ، وسعينا ، أكثر

بما نعطى عوامل القرب والاتفاق . . ومن ثمّ كانت شُقة الخلاف تمضى دائماً نحو الاتساع .

أما الآن ، فسنقصر محاولتنا على كشف عوامل القرب . . كشف الأرض المشتركة التى نقف فوقها جميعاً مهما شطّ بنا الخلاف .

* * *

تُرى ، هل يكون من حسن حظ العالمَ أن تنحصر خلافاته الكبيرة والشاقة اليوم بين الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى . . ؟؟

رُبما . .

فالدولتان - عبر التاريخ - كانتا دائما أقرب إلى المودة المتبادلة ، منهما إلى الحقد والعداوة .

وبعد ثلاثين عاماً من قيـــام الدولة الأمريكية ، بعد انتصارها فى حرب الاستقلال - إلىأ يامنا هذه ، والعلاقات بين البلدين طيبة فى مجموعها . .

ويوم وقفت بريطانيا وفرنسا ، تغذيان الحرب الأهلية الأمريكية ، وتناصران الجنوب فى تلك الحرب ، تقدمت روسيا القيصرية بمساعدات هائلة أحبطت عمل فرنسا وانجلترا . . وكان هُتاف الأمريكان يومئذ « الله يبارك الروس » . . !

ولعلّ مخاوف أمريكا من روسيا ، لم تأخذ شكلها الحاد إلا يوم انتصرت الثورة الشيوعية ، وقام الاتحاد السوفيتى .

فغداة هذه الثورة ، سمحت أمريكا لنفسها أن تتدخل بقوة السلاح فى شئون روسيا وضد حكومتها .

كما سمحت لنفسها أن تمتنع عن الاعتراف بالحكومة الجديدة مدى أربعة عشر عاماً ـ من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٣٣ .

على أن فى التاريخ ظاهرة عجيبة . تُشير إلى أن فى علاقات روسيا وأمريكا وشيجة هامة لعلهما عاجزان عن رؤيتها .

ففى الحرب العالمية الأولى . . وقفت الدولتان فى جبهة واحدة . .
وفى الحرب العالمية الثانية . . وقفت الدولتان فى جبهة واحدة . .
والعبرة فى الحرب الثانية ألمع منها فى الحرب الأولى . . فالحكومة الروسية التى خاضت الحرب مع أمريكا فى الحرب الثانية ـ كانت حكومة شيوعية ..

وهذه الحكومة كانت فى حلف مع هتلر . . حتى كشفت لها الظروف الصحيحة أن مكانها ليس مع هتلر .. وإنما مع حليف آخر .. وكان هذا الحليف ـ أمريكا .

أليس ثمة سرا خفيا يجمع بين الدولتين فى ساعات الخطر .

بلى .. هناك سر ، ولكنه ليس خفيا .. بل هو واضح وماثل فيما بين الدولتين من إمكانيات طبيعية للتفاهم والتآخى ..

ماذا تنقم أمريكا إذن من روسيا . ؟

وماذا تنقم روسيا من أمريكا . ؟

لابد أن النزاع بين المذهبين الرأسمالى ، والشيوعى ـ على رأس عوامل الخلاف بين الدولتين .

وسوف نعرض لهذا العامل عندما نتحدث عن الخلاف المذهبى .

أما الآن فنرى أن من أسباب نقمة أمريكا على روسيا ، أنها

أولا ـ مسئولة عن معظم الانتفاضات الثورية فى بلدان آسيا ، وأفريقيا ..

ثانياً ـ مسئولة عن الحملات التى تعرضت لها أمريكا فى كثير من بلدان آسيا وأفريقيا ..

ثالثاً ـ مسئولة عن التغرير الذى تُوقعه بالشعوب الأخرى ، مما يجعل هذه الشعوب تتخذ من روسيا صديقاً لها . . . وكل صداقة لروسيا ـ تعنى عند أمريكا ـ العداوة لأمريكا ..

رابعاً ـ محاولاتها المتنكرة لبسط سلطانها وسيادتها ونظامها على العالم .

ونحن لانخمن هذه الأسباب ولا نفتعلها .. وإنما هى مبسوطة فى فى كل الكتابات الأمريكية التى كتبها كبارُ كُتّاب أمريكا ومعلقيها السياسين . ، ومبسوطة كذلك فى التصريحات الرسمية الكثيرة للمسئولين الأمريكان ..

● ـ فأما مسئولية روسيا عن ثورات التحرير فى العالم . فهو شرف عظيم تضفيه عليها أمريكا ، وهى لاتدرى ..

ونحن بدورنا نُشرك أمريكا فى هذا الشرف .. باعتبارها صاحبة ثورة من أنظف وأعظم ثورات التاريخ .. ثورة كانت الطليعة للثورة الفرنسية نفسها ، ولكل ثورات التحرر فى أوربا خلال القرن التاسع عشر ، ومطالع القرن العشرين ..

وحتى إذا كانت روسيا مسئولة وحدها عن ثورات مابعد الحرب العالمية الثانية ، فهل فى ذلك ماتبتئس به أمريكا .. ؟ ؟

إننا نفهم أن يثيرُ هذا مغايظ بريطانيا ، وفرنسا ، لأن العقد الذى انفرط بهذه الثورات كان عقدهما . . أما الولايات المتحدة ، وطن جيفرسون ، ووشنطن ، ولنكولن . فما لها فى ثورات التحرير عدو تخشاه .

* * *

● ـ أما مسئوليتها عن الحملات التى تعرضت لها أمريكا فى كثيرمن

بلدان آسيا وأفريقيا .. فالمسئول الأول والأوحد ـ أمريكا نفسها منذ أسلمت « ذقنها » لحلفائها ، وخاضت معهم أو حال أقصى استعمار مارسوه وفرضوه على الناس ..

عندما حرص « ترومان » رئيس الولايات المتحدة على أن يكون أول مهنىء بقيام دولة « إسرائيل» دون أن يُدخل فى اعتباره الفطـن ، التبعات السياسية لهذه المبادرة .. ودون أن يُجامل العرب فى مأساتهم الكبرى ، ولو بالتريث قليلا فى إزجاء التهنئة .. !!!

عندما فعل هذا ، أثار حفيظة العرب بلا ريب ولم تكن روسيا صاحبة الفضل فى هذه الإثارة .

وعندما تُعلن حكومة مصر إلغاء معاهدة «٣٦» وتُرسل بريطانيا شواظاً من نار على شعبها فى القنال ثم يقف وزير خارجية أمريكا ليعلن « أن حكومة مصر لا تملك الحق فى إلغاء المعاهدة » ويُناصر بهذا التصريح كل أعمال البطش البريطانى ضد شعبنا .. فأن مثل هذا الموقف يثير نقمتنا لاريب .. ولم تكن روسيا صاحبة الفضل فى هذا ..

وعندما تفاجئنا حكومة الولايات المتحدة بسحب تمويل السد العالى ، وفى ساعة خطـرة من ساعات حياتنا . . ثم تشفع عملها هذا ، بأشهار إفلاسنا على العالم أجمع ، بطريقة لاذوق فيها ولا عدل ..

فأن هذا الموقف يدعو للغضب لاريب .. ولم تكن صاحبة الفضل فيه ـ روسيا ..

وحين تحمل أمريكا ، هيئة الأمم المتحدة على حرمان الصين من أبسط حقوقها وهو عضوية المنظمة العالميه المذكورة .. فأن ذلك يثير الحفيظة ، والريب .. وليست روسيا صاحبة الفضل فى هذا .. .

وهناك مواقف كثيرة تتسم بالرداءة ، تورطت فيها سياسة الولايات المتحدة .. ولكننا لانستطرد فى ذكرها ، لأن تصفية الأحقاد ، لا إشعالها ـ غرضنا من هذا الكتاب .

وماكنا لنسوق هذه الأمثلة ، لولا أن المقام يتطلب ذِكرها حتى نصحح موقفاً ، يتطلب سلامُ العالمَ تصحيحه .

* * *

● ـ أما مسئولية روسيا عما تعتبره أمريكا تغريراً بالشعوب التى تُسارع إلى صداقتها ؛ فلنسأل التاريخ عن هذا .

عندما قامت حكومة « لينين » فى روسيا ، بدأت عملها بنشر الاتفاقات السرية التى كانت قد أُبرمت من بريطانيا ، وفرنسا ، وقيصر روسيا .. والتى وُزع العالم بمقتضاها بين الدول الثلاث ، لغنيمة باردة ..

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات السرية كانت تمكن روسيا من

فرصة ذهبية ، وتعطيها استانبول ، والدردنيل ، وبحر مرمرة، ومنطقة واسعة تُتاخم القفقاس .

على الرغم من هذه الفرصة الذهبية النادرة ، فقد أعلن « لينين » تنازل روسيا ، بل اشمئزازها من هذه الصفقة المسروقة .

لتقل أمريكا فى دوافع هذا العمل ماتقول .. ولكن ألا تعترف أنه عمل عظيم باهر .. ؟؟ وأليس مثل هذا العمل يدعو إلى حب أصحابه وتقديرهم .. ؟ ؟

وهل هذا الحب ثمرة تغرير وخداع ..

إن الاتحاد السوفيتى فى منطقة كمنطقة الشرق الأوسط لم يخلق لنفسه عدوات بين أهلها .. عدوات تحمل الناس على الخوف منه فضلا عن بغضه .

تماماً مثل الولايات المتحدة قبل أن تحمل أوزار حلفائها .

لقد ثار العرب ثورتهم الكبرى عام ـ ١٩١٦ ـ ..

وفى تلك الثورة ، ناصروا الإنجليز والفرنسيين ضد الدولة العثمانية ـ أملا فى الظفر بحريتهم التى وعدهم بها الإنجليز والفرنسيون .. «١»

ولكن قبل هذه الثورة بشهر واحد ، كانت بريطانيا وفرنسا قد وقّعتا مع القيصر اتفاقية « سايكس بيكو » ومزّقوا بها العرب شرّ ممزق .. فى نفس الوقت الذى كانوا يقولون للعرب فيه : ساعدونا

ضد تركيا ، ولكم الحرية كافة والاستقلال كاملا ..

ولم يفضح لنا هذا الإتفاق الغادر سوى حكومة الاتحاد السوفيتى ..

* * *

وفى إيران ـ ورثت حكومة لينين ، جزءاً كبيراً كانت تحتله حكومة القيصر ، وفق معاهدة سرية بين القيصر وبريطانيا .. فما إن تسلم « لينين » زمام الحكم حتى سحب جيوش بلاده فوراً .. ولا بد من أن تصنع بريطانيا صنيعاً مماثلا، زحفت بجيوشها شمالا ، واحتلت جميع إيران .. !!!

أفيكون هذا العمل من روسيا تغريراً وخداعاً ..

* * *

وفى تركيا ـ حين قام .. أتاتورك » بثورته وألبت بريطانيا ضده كل دول العالم فرفضت الاعتراف به .. واستولى الجيش البريطانى على نصف أراضى تركيا ، واحتلت إيطاليا جزرها ـ لم يسارع لنجدتها سوى الاتحاد السوفيتى الذى اعترف بحكومة « أتاتورك » .. وأحبط المشروع البريطانى الفرنسى الإيطالى اليونانى الذى كان يهدف لتمزيق تركيا واقتسامها ، وأمست معاهدة « سفر » المشهورة ، هباء فى هباء . . !!

أكان هذا العمل تغريراً وخداعا ..

ومصر ـ عندما وقف الاتحـاد السوفيتى يناصرها فى مجلس الأمن أثناء عرض قضيتها عليه عام ١٩٤٨ .

وعندما امتنع الغرب عن إمدادها بسلاح قبض ثمنه مقدما . . فبسط الاتحاد السوفيتى يده إليها بالسلاح .

وفى حرب السويس عندما وقف « بولجانين » يعلن باسم حكومته وبلاده أن الاتحاد السوفيتى قادر على قـصف المدن البريطانية والفرنسية بالصواريخ الموجهة , إذا لم تنه بريطانيا وفرنسا عدوانهما المسلح . .

أ كانت هذه المواقف تعريراً وخداعا . . ؟ ؟ كيف نعتبر تمويل المرحلة الأولى فى بناء السد العالى مثلا ـ ضربا من التغرير . ونحن نرى البناء يُشاد ويرتفع . . ؟

الحق أن أمريكا تستطيع أن تكتشف بنفسها ولنفسها، أن حُبّ الشعوب التى تناصرها روسيا ، لروسيا ليس ثمرة خداع ولا تغرير إذا جرّبت هى ، ومنحت هذه الشعوب قلبها وودها ، وعاونتها على نيل حقوقها كاملة .

عندئذ ستحبها هـذه الشعوب وتحترمها ـ كما أحبت روسيـا واحترمتها . . . وعندئذ ستعرف من طعم هذا الحب حين تذوقه ـ أنه ثمرة الفهم وحفظ الجميل .. لا ثمرة الخداع والتغرير .

أما محاولة روسيا بسط سلطانها ونظامها على العالم .. فنود أن نسأل :

هل فى محاولتها هذه ـ إن صحّت ـ ما يشدّ زناد البغضاء ، ويوسع شقة الخلف بين أمريكا وبينها .. « ؟! »

لقد عاشت العلاقات ودية وطبيعية بين أمريكا وبريطانيا يوم ـ لم تكن بريطانيا تحاول فحسب ـ بل كانت تبسط على العالم بالفعل سياستها وتفرض عليه استعمارها ..

وفرنسا ، صديقة أمريكا وشريكتها فى حلف الأطلسى ، ترتكب خلال أربعة أعوام موصولة الأيام والليالى ، أبشع أنواع السيطرة ، والاستعمار والتخريب . .

فهلاّ تستطيع أمريكا أن تعامل روسيا بالمثل فتهبها صداقتها فى نفس الوقت الذى تحاول فيه روسيا بسط سلطانها ونظامها على غيرها . . ؟!

قد يبدو هذا السؤال ساخراً . . ولكننى مع هذا أعنيه .

ثم إذا كان هذا الاتهام صحيحا . . وكانت روسيا تبغى حقيقةً ، بسط سيطرتها وسلطانها ؛ فما سبيل الحيلولة بينها ، وبين محاولتها . . ؟

إنها سبيل واحدة . . هى دعم سلطان هيئة الأمم المتحدة دعماً

كاملا ، وتمكينها من بسط نفوذها على الدول الكبرى نفسها ، حتى تصير قادرة على كبح جماحها حين تحاول الجموح إحداها .

وحين ترتفع تصرفات أمريكا إلى المستوى الذى تتطلبه سيادة الأمم المتحدة . . وحين تسخر نفوذها لدعم هذه السيادة ، ستكون حقاً قد قطعت الطريق على كل محاولة فردية لبسط النفوذ والسلطان .

* * *

لا بد من اكتشاف جميع عناصر التفاهم المشترك ، القائمة والممكنة ، فى العلاقات الأمريكية الروسية . . ولا بد من تنمية هذه العناصر ، ودعمها بما هناك من مصالح مشروعة ومشتركة بين الدولتين . .

فى عام – ١٩٤٥ – زار موسكو « أريك جونستون » رئيس الغرفة التجارية الأمريكية يومئذ – ، واجتمع برئيس وزراء الاتحاد السوفيتى ، وكان الرفيق « ستالين » .

وقال له ستالين :

« إن الولايات المتحدة ، قد أسدت إلى الصناعة »
« السوفيتية عوناً عظيما .. .. »
« وفى الاتحاد السوفيتى مصانع كثيرة أنشئت »
« بالعون الأمريكى ، أو استعين فى إنشائها بالخبرة »
« الأمريكية .. .. »

وقال أيضاً :

« لقد صنع هتلر الأحمق خيراً واحداً . . . هو أنه »
« جمع بين الشعب الأمريكى ، والشعب الروسى »
« وعلينا ألا نسمح لشىء ما أن يفرق بيننا . . . »
« نعم . . يجب أن نعمل معاً بعد الحرب . . . . »

* * *

هذا عن النزاع بين الدولتين .

أما النزاع بين المذهبين ، أو النظامين ـ الرأسمالى . والشيوعى فأمره هَـين إذا تحـَّينا التَّلغظ وتوخـَّينا الفهم الصحيح .

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى عام « ١٩١٨ » ، انتهت معها الزعامة الفعلية لـ « أوربا » ..

ويومئذ ، أخذت تركتها ، وميراثها ينتقلان فى تدرُّج وأناة إلى أمريكا بنظامها الرأسمالى .. وروسيا ، بنظامها الاشتراكى ..

ونستطيع أن نقول : إن أمريكا ورثت « أوربا » ..

وإن روسيا ورثت « نقيض أوربا » ..

أى أن أمريكا أخذت النظام الاقتصادى والرأسمالى الذى كان قائماً فيها بالفعل حتى قبل أن ترث أوربا ، ثم صارت به فى امتداد صاعد ..

وأما روسيا ، فأخذت من هذا النظام نقيضَه المتفوق عليه ..

وإذا أخذنا بنظرية فى تجوّز بنظرية الديالكتيك ، قلنا : إن أوروبا قدّمت لعصرنا الحديث الشيء ونقيضه .

والشيء ، ونقيضه ـ يعملان اليوم على صعيد المرحلة التاريخية الماثلة .. وسيُثمران معاً النتيجة المركبة التى ستتضمن خير مافى الشيء وخير مافى نقيضه .

والشيء هنا ـ هو الرأسمالية ، بكل فلسفاتها نظمها . .

ونقيضه ـ هو الاشتراكية ، بكل نظمها وفلسفاتها .

وفى كل مجالات الطبيعة ، نجد الأشياء ، وأضدادها تعمل معاً وتتفاعل معاً لأداء غرض واحد هو : استمرار الحياة ، والكشف عن إمكانياتها الوافدة الواعدة .. دون أن ينشب بينها قتال ..

فلماذا لا يقوم . فى المجال الإجتماعى ، نفس التعاون بين الشيء ونقيضه .. بين الرأسمالية ، والاشتراكية ..

ولماذا لا يكون لنا ـ نحن البشر ـ دورنا فى دعم هذا التعاون وتقبّل قوانينه .. ؟

لستُ أدرى مدى مافى وجهة نظرى هذه من خطأ مُحتَمل .. ولكنى أحسب أن فيها بصيصاً قوياً من صواب ، يمكن أن يكبر وينمو بما يُضيفه إليه القارىء من تفكيره وذكائه .

وأحسب كذلك أنّ من ضرورات الأخاء البشرى ، والسلام العالمى ، أن تدرك الرأسمالية ، والشيوعية ، أنهما يصنعان معاً مصيراً إنسانياً واحداً ..

ولن تكون لأحداهما الغلبة ـ حين تنسحب الأخرى من الميدان ـ .. بل ستكون الغلبة للتقدم الإنسانى قاطبة ، وللقافلة البشرية بأسرها .

إن حركة التاريخ تقرر دائما ، وتختار النهج المُلائم لسير التقدم الإنسانى .

وهُتاف كل فريق بمذهبه ، وفُتُو نه بنظامه ، لا يعنيان خِداع هذه الحركة الذكية الواعية .. ؛ فهى ماضية إلى خير البشرية كلها ـ لا تُحابى ، ولا تتملق .

ونقد كل من المذهبين للآخر ، لم يعد يستوجب العداوة والحقد ، والحرب .

كما أن أى نقد يوجه إليهما من خارج معسكريهما ، يجب أن يجد فرصته فى الإفصاح والتعبير .. سيما وكل مذهب يريد أن يكون الرائد للتقدم الإنسانى ، ويزعم أنه على ذلك قدير .. ؛ فلا أقلّ إذن من أن يسمح للذين سيمضون وراءه أن يُناقشوه ، ويتأكدوا من جدارته وصلاحيته .

ولقد قام من أقطاب الرأسمالية نفسها مَن وجّه إليها النقد المرير .. وطالب بتطويرها ..

ذلكم هو « اريك جونستون » ، وهو من كبار الشخصيات الأمريكية التى تعتز أمريكا بتفكيرها ، وجهودها والمنادى بفلسفة جديدة لرأسمالية ديمقراطية . .

ففى الحفل الذى أقيم تكريما له لمناسبة انتهاء مدته كرئيس للغرفة التجارية الأمريكية . قال بالحرف الواحد :

« إن تعريف الرأسمالية فى المعجم ، أصبح ميتا »
« كالحيوانات المنقرضة .. .. »
« الرأسمالية : حشد رأس المال .. الرأسمالية : نفوذ »
« رأس المال ، متى انحصر فى أيدى رجال قلائل .. »
« وقد عاش رجال الأعمال أمدا طويلا فى ظلال »
« هذا التعريف ، وهو لا ينطبق إلا على ما مضى من »
« عهود السلب والنهب ، والسالبين والمحتكرين .. »
« أما الآن . . فقلبوا أنظاركم فى أرجاء الأرض ؛ »
« تروا ما تمّ فيها . . لقد زالت الرأسمالية القديمة ، »
« أو كادت .. .. »
« صُفِّيت فى روسيا . . . وهى فى حشرجة الموت »
« فى أوربا . . . وتكاد تختنق فى بريطانيا .. .. »
« ولقد كانت فترة رياستى للغرفة التجارية فترة تجربة »
« ودارسة . . وقد اقتضانى عملى فيها أن أتجول فى »

« أقطار الأرض فرأيت مصرع الرأسمالية بعيني رأس »
« وقد اقتضاني عملي أيضاً أن أتجوّل في أمريكا مرارا،
« لا حصر لها . . ؛ فخرجت من رحلاتي كلها بهذه »
« العبرة : إما أن نُساير المبادىء الحرة وإما أن »
« نُواجه خطر الانقراض . . هذا هو ناموس الحياة : »
« المسايرة . . أو الانقراض . . . . » !!

* * *

كذلك قامت الشوعية بنقد نفسها ، نقداً عمليا تجلىّ في التعديلات الكثيرة التي كانت الماركسية تخضع لها على ضوء التطبيق العملي في أول حقل لهـا ، وهو روسيا . .

كما أن المآخذ التي أدان بها « خروشوف » سلفه الرفيق « ستالين » ، كانت في جوهرها اعترافا ضمنيا بوجود نقاط ضعف في النظام نفسه ، تحتاج إلى تصويب وتقويم .

ولقد نشر كاتب أمريكي كبير كتابا بعوان « قضية السلام » ونشر ملخص كامل له باللغة العربية . .

وعلى الرغم من أننا لا نوافق المؤلف في بعض النقاط ، إلا أنه ـ في مجموعه ـ يمثل وجهة النظر التي نقررها هنا . . وهي أن المذهبين . قادران على أن يعيشا معاً عيشاً حميدا .. وعلى أن النقد يجب أن يكون موضع حفاوتهما ، إذا كانا يثقان بنفسيهما ..

وقد قام المؤلف نفسه ، وهو « أمرى ريفز » بمناقشة الرأسمالية ، والشيوعية .

وعلى الرغم من أنه أمريكى ، ولا يؤمن بالشيوعية ، فقد قال قولا فيه كثير من الاعتدال ، والحكمة .

قال تحت عنوان « إخفاق الرأسمالية » :

« كانت الرأسمالية ، هى الفلسفة الاقتصادية السائدة »
« عند مولد النهضة الصناعية وكانت ثورات التحرير »
« السياسية ، قد حققت غاياتها فى بداية القرن التاسع عشر »
« وكان من الطبيعى أن تصبح المُثُل العليا السياسية »
« التى انتصرت ، هى المبادىء الأساسية السائدة »
« فى ميادين الاقتصاد والصناعة والتجارة فى فاتحة »
« العصر الصناعى وهكذا سارت حرية الاجتهاد ، ».
« وحرية التجارة ، وحرية المنافسة جنبا إلى جنب »
« مع الحرية السياسية . . . . ».
« على أن الاقتصاديين من دعاة الحرية المطلقة »
« للاجتهاد ، عجزوا عن أن يدركوا أن الحرية فى ».
« الشئون الاقتصادية لا يمكن أن تكون مطلقة ، إلا »
« إذا كانت المساواة التامة المطلقة قائمة بين الأفراد »
« وإلا إذا ألغى الميراث ، وصار على كل إنسان أن »

« يبدأ من البداية ـ الأمر الذى ليس ممكنا ـ . . . »
« ومن الجلى أن النظام الموجود الآن فى الدول »
« الرأسمالية ، لايمكن أن يُسَمى ـ اجتهادا حرا مع »
« احتكار كثير من الصناعات احتكارا يمنع أن »
« توجد محاولات جديدة . . . . »
« ومن أجل هذا ، َخلقت الحالة الصناعية الحديثة »
ثروات لاتتطاول إليها الأحلام للاقوياء من الوجهة
« الاقتصادية ، وفقرا ونقصا فى الحرية للملايين الذين »
« صار عملهم مجرد سلعة . . . . !! »

* * *

ويقول المؤلف نفسه تحت عنوان « إخفاق الاشتراكية » :

« كان المثاليون الذين يؤمنون بالمجتمع الجامع مقتنعين »
« بأنه متى تمَّ تحويل ملكية الأرض ووسائل »
« الأنتاج من الأفراد إلى الدولة ؛ فإن المساواة »
« الاجتماعية تتحقق ، فيوجد مجتمع جديد سعيد ، »
« يعيش فى رَغد . . . . »
« علَى أنه تبين بعد سنوات قليلة من قيام الثورة »
« الشيوعية أن المساواة الاجتماعية والاقتصادية »
« لا تتفق مع طبيعة الإنسان « ! » فأن الاجتهاد »

« الخاص لازم للتقدم ، ولا مَعدَى عن مقدار من »
« الملكية كنتيجة للحرية الإنسانية وقد ظلت الأمة »
« الروسية عشرين عاما تعمل بهمة وإخلاص فى سبيل »
« إحراز قوة صناعية عظيمة ، وإنتاج الأسلحة »
« اللازمة للدفاع عن بلادها إذا هُوجمت ولكن »
« مستوى المعيشة ظل منخفضا جدا على الرغم من »
« أرقام الأنتاج الضخمة وقد اضطر الشعب السوفيتى »
« أن ينزل عن حريته الفردية ، وعن كل أمل فى »
« حياة رغيدة قريبة ، وفى إنتاج سلع الاستهلاك التى »
« يحتاجها ليتسنى له قصر جهوده على صناعة مواد »
« الحرب .. وقد أثبت الهجوم الألمانى على روسيا فى »
« يونيو عام — ١٩٤١ — أن الاهتمام بالصناعات »
« الحربية كان أمر لابد منه وجاء الانتصار فى »
« ستالنجراد دليلا على مبلغ نجاح هذه الخطة » .

* * *

وبعد أن يُسطنب « أمرى ريفز » مؤلف « قضية السلام » فى نقده للاشتراكية مثل إطنابه فى نقده للرأسمالية ، ينتهى إلى هذه الكلمات المعتدلة الحصيفة :

« لا محل هناك للجزم بشىء فيما يتعلق بالنزاع بين »

« الرأسمالية ، والشيوعية فإن كلتيهما تعلن أن غايتها »
« رفع المستوى المادى والثقافى للجماهير . . . . »
« أما أن يكون هذا النظام ، أو ذاك ـ أقدر على »
« إدراك هذه الغاية ، فأمر يجب أن يتقرر بعد »
« التجربة ، لا بأن يحطم كل منهما رأس الآخر . . . »
« وإذا كان شعب معين . كالشعب السلافى تميل به »
« تقاليده التى مضى عليها قرن ، إلى الملكيه العامة . »
« وإذا كانت شعوب أخرى ، كاللاتينية والأنجلو »
« السكسونية ، تميل بها تقاليدها إلى الملكيه الخاصة »
« فإنه ليس هناك أدنى سبب يمنع هذه النظم المختلفه »
« من الوجود معاً ، والتعاون معاً . . . . »

* * *

هذا هو الموقف الفكرى والسياسى الذى ينبغى أن يكون طابع العلاقات بين المذهبين المتنازعين . . الرأسمالية والشيوعية .

وليس من حق دُعاة المذهبين أن يَغلوا ، أو أن يُفارقوا مشاعر الشك والتربص .

وينبغى أن يحمل كل فرد تبعاته حيال هـذا الذى أسميناه « موقف نزاع » بين الرأسماليةوالشيوعية .. مُـدركين جميعاً أن إقرار السلم ،

والإخاء فى زماننا ، رهن بإحراز قدرة على التسامح ، والفهم ، تستعلى على كل تعصب و بغضاء .

مال ، بغير رأس . .

تحدثنا عن سير التجارة عبر التاريخ ، ورأينا كيف ارتبطت بالحروب دائماً ، حتى اصطنعت أوربا شعاراً ، بل عقيدة تقول : « الحرب تنعش التجارة » . .

ولقد تطورت التجارة تطوراً ضاراً ، حتى صارت رأسمال محتكر متسلط . . وتطورت الرأسمالية ، حتى بلغت أوج امتدادها ، فإذا هى استعمار وحروب . .

والناس معذورون ، حين يحملون « رأس المال » المسئولية الأولى عن الحرب وتخريب عالمهم .

فسلوك الرأسمالية لا يشجع أبداً على الثقة بها .

إنها تخون ، حتى وطنها عندما تتعرض مصالحها للضرّ والخطر . .

فى عام « ١٩٣١ » لم يكد الرأسمال البريطانى يحس بوطأة الأزمة العالمية . . حتى وجّه لبلده بريطانيا ضربة قاصمة . . !

فقد قام أصحاب رءوس الأموال بتهريب أموالهم خارج بريطانيا ، واضطرت الحكومة الانجليزية تجاه عملهم هذا ، أن تقرر فصل الجنيه الاسترلينى عن قاعدته الذهبية . . فهبطت قيمته فوراً إلى ثلثى ما كان عليه . . !!

الناس معذورون ؛ لأن ظواهر كثيرة تَجْتَبِه رأس المال بالاتهام .

● ففي الأزمة العالمية عام « ١٩٣٠ » ، توقفت المصانع ، وأجدبت الحقول ، وترك الفلاحون في كل العالم محاصيلهم ، أو كادوا يتركونها في مكانها من الحقول .. لأن أثمانها حين تُباع ، لا تفي بنفقات جنيها وجمعها .. وملأت البطالة والمجاعة كل البلاد .

كل الصناعات توقفت أو كادت .. ما عدا صناعة واحدة ، زادت ازدهاراً ، تلك هي صناعة الأسلحة .. !!!

● وتعترف بريطانيا زعيمة الرأسمالية يومئذ اعترافا له قيمته فتقول في المذكرة التي أرسلتها إلى الحكومة الأمريكية عام « ١٩٣٢ » بشأن ديون الحرب :

« إن الآلام التي تُعانيها البشرية لا يرجع لي سببها »
« إلى جحود الطبيعة ولكنه يرجع إلى خطأ النظم »
« التي تسير عليها .... »

● ويقف « هتلر » عام ١٩٣٩ ، فيقول في خطاب له :
« على ألمانيا أن تُصدّر ، أو تموت » ..

ويرد عليه « هدسون » الوزير البريطاني من لندن ، فيقول :
« وبريطانيا أيضا ، عليها أن تُصدّر أو تموت » .. !

وهكذا أشعل النزاع على التصدير والربح ، أبشع حرب في التاريخ .. !

● ويحدث توافق سعيد ، بين الحرب الكورية عام « ١٩٥٠ » وبين الأزمة الأمريكية التى سبقت حرب كوريا وتبدو العلاقة بين الأزمة ، والحرب واضحة مُبينة .

فقبيل حرب كوريا - كما يحدثنا كتاب « الحرب والشعوب » للأستاذ بدر السباعى - ، هبط مستوى الإنتاج الأمريكى إلى ٢٢٪ . .

وزادت قيمة البضائع المخزونة ، ٦٠٪ . .

وهبطت أسعار المحاصيل الزراعية ، ١١٪ . .

وهبطت أرباح الشركات الرأسمالية ، ٢٥٪ . .

وبلغت الأفلاسلات ، ٧٥٪ . .

ووصل عدد العمال العاطلين ، ثلاثة ملايين ، ونصف مليون عاطل . .

فلما نشبت الحرب الكورية ، أخذت الأزمة الاقتصادية الأمريكية تنقشع ، ونشرت مجلة « الولايات المتحدة والعالم » تقول :

« إن الحرب الكورية أوجدت أوضاعا قادرة على »
« إبقاء الإنتاج فى مستوى رفيع . ولقد جاءت هذه »
الحرب فى أوانها « ! » ؛ لتدفن شبح الأزمة الذى »
« كان يرعب رجال الأعمال الأمريكيين ، والذى »
« أقض مضاجعهم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ... !!! »

● وبعد زيارة « خروشوف » لأمريكا مباشرة ، يعلن مسئول أمريكى ، و « سناتور » كبير .

« أن وقف الحرب الباردة ، خطر على أمريكا . لأنه »
« سيسبب لتجارتها المتاعب ، ولمصانعها التوقف ، »
« ولعمالها البطالة . . . . »

* * *

ولا بد لنشدان السلام ، فضلا عن إقراره ، أن يقرر مصير رأس المال أولا . .

والبشرية حتى يومها هذا ، لا تستغنى عن المال ، ولا عن التجارة . . ومن ثم ، فنحن لا ننادى بإلغائها . إنما ننادى بضرورة تطويعها لمبادىء التقدم الأنسانى الماضى نحو بشرية واحدة جديدة . لا استغلال فيها ولا عدوان .

أجل . . نريد مالا بغير رأس . . إن صح هذا التعبير .

هل تريد الرأسمالية ، القناعة ، أم الجشع . . ؟

هل تريد رحمة الناس ، أم هلاكهم . . ؟

هل تريد تقدم البشرية ، أم تخلفها وانتكاسها . . ؟

إنها تردد دائماً ـ أنها تريد تقدم الناس ورخاءهم وسعادتهم . .

وحسن هذا . . وعليها إذن أن تبحث لنفسها عن نهج لا يجعل

الاستغلال أوضح خصائصها ، والحرب أصدق نتائجها .. !!!

إن الاعتزاز بالرأسمالية ، يلوذ أكثر ما يلوذ بمنطق واحد . هو : أنها النظام الذى يحقق حرية الفرد .. هذه الحرية اللازمة لكل نشاط إنسانى،عكس الاشتراكية،التى تُعلى سلطان الجماعة على كل سلطان..

ونحن نسأل : أليس يمكن أن يسود سلطان الجماعة سيادة مقيدة بالحقوق الأساسية الثابتة للفرد .. ؟ ؟

ونجيب : بلى ، يمكن هذا . وهو ما نريد أن يسير عليه النشاط الاقتصادى دوما ..

ثم أين حرية الفرد فى الرأسمالية ما دامت تعتمد فى ازدهارها ، على المنافسة غير المشروعة .. وعلى الاستغلال والحرب .. ؟ ؟

هل تُبقى المنافسة الظالمة ، والاستغلال ، والحرب ، حرية الناس .. ؟

بل أين « حرية التجارة » نفسها ، وهى أهم مميزات الرأسمالية وأبرز خصائصها .. ؟

لقد انتهت حرية التجارة ، يوم قامت الحواجز الجمركية ، والحماية الجمركية .. وأمسى نظام الاجتهاد الحر غير ذى موضوع .. !

تماما ، كما انتهت حرية الفرد حتى داخل الدول الرأسمالية نفسها يوم قامت التكتلات الكبيرة من أصحاب الصناعات الكبرى ، والرأسمال المكتنز ..

إن تفادى المصاير المظلمة التى تُسببها الرأسمالية المحتكرة يبدأ من نقطة هامة كل الأهمية .. ألا وهى : تجريد رأس المال من سلطانه، ومن حقوق السيادة التى انتحلها لنفسه .

وهذا العمل ، لا يُناط بأمريكا . ولا يُناط بروسيا ، ولا بأية دولة من الدول مهما يكن شأنها . . إنما يُناط تنفيذه بهيئة الأمم المتحدة رأسا .

أما كيف يكون ذلك . . فنرجو أن نتحدث عنه ، بعد فراغنا من النقطتين التاليتين . .

* * *

ميثاق الإنسان . .

كما أن تجريد رأس المال من سلطانه ، أمر محتوم لبناء عالمنا الواحد . . كذلك إلغاء الأحلاف ، أمر أكثر حتمية .

فالأحلاف ، كما تبينا من قبل ، إنما يراد بها حماية مصالح خاصة للدول المتحالفة . . كما أنها كالخطايا : ينادى بعضها بعضا . . وبالتالى تمزق أواصر الأخاء والوحـــدة ، بما تشيعه فى صفوف العالم من تكتلات متنابذة . .

ومن التناقض الشاذ الذى تنطوى عليه علاقات عالمنا ، أن تقوم « هيئة أمم » لها الكلمة العليا كما هو مفروض . . ثم تقوم أحلاف

فى كل مكان من الأرض بدافع التربص والأعداد للمغامرة البشعة الكبرى . . !

لابد للبشرية أن تحتفل فى يوم قريب بحرق جميع وثائق تلك الأحلاف . . من حلف الأطلسى ، إلى حلف وارسو . .

وما كان قبلهما ، وما جاء بعدهما من أحلاف . . !

ولقد أعلن الاتحاد السوفيتى عن استعداده لألغاء « حلف وارسو » فور إلغاء حلف الأطلسى . .

وما ينبغى أن يكون أقطاب الأطلسى أقلّ حرصا على السلام . . . هذا السلام الذى يتطلب وَأد كل الأحلاف . . وإنهاض حلف واحد . . وميثاق واحد . . هو ميثاق الأنسان . !

قد يشق إلغاء الأحلاف على الدول التى تستمد من الأحلاف طمأنينتها . .

ولكن لتعلم ، بل لتستيقن أنها طمأنينة كاذبة ، تلك التى تنتظرها من سياسة الأحلاف . .

فى يوم « ٣٠ » اكتوبر عام ١٩٤٣ ، هَوَت أفئدة الناس إلى « موسكو » حيث كان « مولوتوف » ممثلا لروسيا . و « هل » ممثلا لأمريكا . و « إيدن » ممثلا لبريطانيا » و « فو » ممثلا للصين . . يوقعون وثيقة من الوثائق الطيبة يقولون فيها :

« إن المجتمعين يدركون الضرورة الداعية إلى ـ هيئة »
« دولية عامة ـ تعمل على استتباب السلام ، والأمن »
« بين الدول . . . . »

ولقد قامت فيما بعد هيئة الأمم المتحدة . . فلماذا لم يصادفها التوقير الواجب ، ولماذا لم تحظ بالثقة التى تغنى عن التماس أحلاف وتكتلات تشلّ عملها ، وتضائل من قدرتها .. ؟؟

هناك عامل له أهميته ، وخطره ، هو المسئول الأول عن هذا .. ؟

ألا وإنه التقوقع داخل الحدود الخاصة ، وإرباء الشعور القومى ، على الحسّ الإنسانى ، والعالمى . .

كل دولة تنشد أهدافها الخاصة ، وتفكر لنفسها وتشعر بذاتها وحدها ..

وهى بالتالى لاتستطيع أن تقف وحدها لتحقيق أغراضها ..

وعندئذ ، تلتمس لها حليفا ، أو حلفاء . .

أما حين تنشد الدول أهدافا عامة تقوم على المبادىء الأنسانية العامة .. وحين تعيش كل دولة بأحساس إنسانى عميم ، فيومئذ يتأتى لها جميعاً وبصورة تلقائية ، توقير هيئة الأمم ، والثقة بها والاعتماد عليها .

إن مغادرة الأنانية ، والتفوق على الذاتية ، بالنسبة للشعوب وللحكومات ـ ضروريان لأقرار سلام صحيح وبناء إخاء وثيق .

ولابد من أن تقوم الثقافات جميعاً على هذا الأساس من اليوم ..

ولا بد من أن تَشيع بكل وسائل التثقيف ، والمعرفة والدعاوة ، كلمة « إنسان » وكلمة « عالمنا » ..

* * *

عالم بلا أرباب ..

وكل جهد يُبذل لأدراك الخير الإنسانى المشترك . مقضى عليه بالحُبوط ، مادام على الأرض أرباب يتمسكون بربوبيتهم ..

هؤلاء الأرباب ، الذين ناقشنا وجودهم التاريخى والسياسى فى فصل سابق ، والذين رأينا همتهم العالية « ! » فى تخريب العالم ، وتدمير أمنه عَبر التاريخ :

لقد رأينا ، كيف كان هناك دائماً فى تاريخنا السياسى ، مايسمى بالدول الكبرى . .

كانوا مرة « الأربعة الكبار . . . ، ومرة أخرى « الثلاثة الكبار » ومرة ثالثة « الخمسة الكبار » . .

ومن مؤتمر فينا . . فى بداية القرن التاسع عشر ، إلى أيامنا هذه ، وكلمة « كبار » اصطلاح سياسى ، يحكى وضعاً « طبقيا » فى العلاقات الدولية للعالم . .

وهذا النظام الطبقى . فى الأوضاع السياسية ، يجب أن ينتهى .

لقد قلنا : إننا لا نتجاهل الفوارق الحضارية بين أمة وأخرى . .

وقلنا : إن هذه الفوارق تجعل بعض الأمم أبهى مكانا ، وأرفع شأنا من غيرها . .

لكن ذلك مختلف اختلافا تاما عن التمايز الذى تصوره نظرية «الدول الكبرى» القائمة اليوم . والتى قامت بالأمس » .

فالمفهوم السياسى للدول الكبرى ، يعنى أن العالمَ كله تحت وصاية مجموعة من الدول تفوقت صناعيا ، وعسكريا .

وهذا الوضع لا يهدم مبدأ من أسمى المبادئ الإنسانية وهو « الديمقراطية » فحسب . . . بل إنه كان عبر التاريخ من أهم أسباب الاستعمار ، والحروب . .

فجميع المؤامرات التى شهدها تاريخنا السياسى منذ هزيمة نابليون إلى اليوم . . كانت مرتعا لأطماع الكبار . . ولو كانت مؤتمرات دولية بالمعنى الصحيح . ، أعضاؤها الشعوب ، لا الحكومات ، وغرضها صالح الشعوب ، لا الدول . . لنجت البشرية من آلام كثيرة سببتها « النزوات الكبيرة » .. !

إن وجود نظام عالمى يسمح بقيام « دول كبرى » و « دول صغرى » ، معناه أننا نعيش فى مظاهر تقدم خادع موهوم ..

فأى فارق بين « دول كبرى » تحمى من يلوذ بها من الأمم الصغرى.

اليوم .. وبين أمراء الأقطاع الذين قاموا ليحموا من يلوذ بهم من ضعفاء الناس بالأمس البعيد .. ؟؟

إن وضع « الدول الكبرى » يشبه تماما وضع « أمراء الأقطاع » الذين سادوا وسيطروا غداة القرن العاشر الميلادى .. !

فلقد كانت « السلطة العليا » فى أيدى أولئك الأمراء ..

تماما ـ كما أن « السلطة العليا » اليوم فى أيدى الدول الكبرى ..

وكان توزع هذه السلطة ، مما يبعث على الريبة . والمنافسة ، وعلى الخوف من فقدانها . ؛ فتقوم الحروب ..

تماما ، كما يحدث اليوم فى علاقات الدول الكبرى بعضها ببعض ..

وكان المثل القائل « تغدّ به ، قبل أن يتعشى بك » هو قانون العلاقات بين الأمراء ..

وهو اليوم نفس القاعدة ، فى علاقات الدول الكبرى .. ولولا التقدم العلمى الباهر الذى زلزل نوايا الحرب ، وألقى فى أفئدة الدول الكبرى فزعا كبيرا ، لكننا قد شهدنا تبادل الغداء ، والعشاء بينها فى صورة فناء واسع النطاق . . !

أفمن أجل هذا ، كان جهاد البشرية طوال القرون . . ؟

وهل ثمة أمل ـ أدنى أمل ـ فى كنس الاستعمار الوقح من عالمنا ، وهناك دول كبرى ، تحمل رواسب الغرور كلها ، ورواسب الضلال كلها . . ؟؟

أليست المأساة الإنسانية الكبرى التى تُمثل اليوم فى الجزائر ، ثمرة إصرار دولة مغرورة على أن تظل إحدى الدول الكبرى . . ؟

إن هناك « هيئة أمم » قائمة . . ولها رغم نقاط ضعفها ـ كلمة مسموعة ، وجهود فعالة . . فهل استطاعت أن تكفّ الدم المراق فى الجزائر عن الجريان . . ؟

هل استطاعت أن تقف حرباً عدوانية مجرمة . . أجل مجرمة ، وأكثر من مجرمة . . هى حرب فرنسا فى الجزائر . ؟

هل استطاعت أن تحول بين فرنسا ، وبين شعب كل ذنبه أنه يريد أن يعيش كما يعيش سكان أى شارع ـ بل أى زقاق فى باريس ، أو لندن ، أو وشنطن . . أحراراً آمنين . . ؟؟

لم تستطع « هيئة الأمم المتحدة » للأسف المرير وقف تلك الحرب الظالمة . . .

لماذا . . ؟ لأن التى تمارسها ، « دولة كبرى » ، وتناصرها « دول كبرى » أخرى .

كيف نُلغى نظام الدول الكبرى . . ؟ كيف نُهشم هذه الربوبية الكاذبة فى الأرض ، وكيف نذروها مع الريح . . ؟

هذا ينقلنا إلى النقطة التالية . .

* * *

هيئة الأمم المتحدة :

إن هذه المنظمة العالمية ، التى شكلناها غداة الحرب العالمية الثانية ، والتى استهلت ميثاقها قائلة « نحن شعوب العالم » . .

هذه المنظمة ، تُمثل أذكى وأقوم تجاربنا الإنسانية . .

ولكنها كأى مغنم من مغانمنا ، ومكسب من مكاسب تقدمنا ـ مهددة بالتفسخ والاندحار ، ما لم نبذل فى سبيلها من ذات أنفسنا ، كل ما يطلبه بقاؤها ، واستمرارها ، وتفوقها ـ من إيثار ، وولاء ، وتضحية . .

ولقد كانت « هيئة الأمم » تتوقع منا البرّ ، لا العقوق . . وكانت تنتظر أن نمنحها من الولاء أكثر مما نمنح أممنا ، ودُوَلنا ، وأنفسنا .

وكان هذا هو الطبيعى . لأن الولاء الذى نمنحه إياها ، إنما نمنحه فى الحقيقة لأنفسنا . . فهيئة الأمم هى : نحن . . هى أوطاننا ، وحكوماتنا ، وشعوبنا . . هى عالمنا فى أرقى مراحل تطوره الماثل .

وإن الولاء الإنسانى لهيئة الأمم ، لهو الدم الذى يملأ شرايينها بالحياة . . فإذا حرمناها ذلك الدم ، فأنى لها البقاء . ؟

لنتصور دافعى الضرائب فى أية دولة ، امتنعوا عن دفعها ، ولنتصور مُواطنى هذه الدولة ، وقد تكتلوا جميعاً فى حركة تمرد ظافر ضد دولتهم . . أتستطيع هذه الدولة أن تمارس حقوق سيادتها . . ؟

إن جميع الأمم ، وجميع الحكومات والدول ، مواطنون فى نطاق هذه المنظمة العالمية . . وإن أى تمرد ترتكبه حكومة أو دولة فى عالمنا كله ، يُعطل الهيئة عن ممارسة سيادتها ، وعن أداء رسالتها .

إذن ، فطبيعة العلاقات بين المواطنين فى أمة ، وبين دولتهم . . كاملة الشبه والتماثل ، بطبيعة العلاقات بين الأمم كلها ، وهيئة الأمم التى تمثل دولتهم العليا . .

وهذا يقودنا إلى التنبيه على مسئلة هامة .

فطبيعة العلاقات بين الناس ودولتهم تقوم على الثقة المتبادلة . . وهذه الثقة لا تباع ، فَتُشترىَ . . إنما هى ثمرة قيام كل بواجبه . . وأول واجبات الدولة تحقيق التكافؤ والمساواة ، والعدل بين مواطنيها جميعاً . .

وحين يختل هذا الميزان فى يدها . وتضطرب مصاير الناس بين يديها ، تبدأ متاعبها ، ويهبّ المواطنون لقلبها والتخلص منها . . وحتى إذا لم يستطيعوا ذلك ، نجدهم يعاملونها بغير اكتراث ، وبغير احترام . .

وهذا هو الذى يحدث تماما بالنسبة للعلاقات بين الأمم ، وهيئة الأمم . .

فالعلاقات بينهما ، يجب أن تقوم على ثقة متبادلة ، تثمرها صيانة

الهيئة لجميع حقوق مواطنيها الذين هم ، أمم العالم وشعوبه . .

فأذا أخلّت الهيئة بواجبها حيال هذه الحقوق ، فأن التمرد عليها ، واقع لامفر منه . . وعدم الاكتراث بها يصير أمرا محتوما . .

وهذا هو الذى حدث لـ « عصبة الأمم » فأودَى بها وجعلها أحدوثة ومَثَلا . .

ولكن ، ما هى الاعتبارات التى يمكن أن تصَدّ « هيئة الأمم » عن رعاية مواطنيها . . ؟

أهى الأنانية ، ورعاية المصلحة القومية الخاصة . . ؟؟

إن هيئة الأمم ليست مؤسسة قومية . . بل عالمية . . وأعضاؤها ، شعوب العالم . فالاحساس هنا ، عالمى لا قومى . . أو هذا على الأقل ما يجب أن يكون . .

إذن ، فالقوى التى تحمل الهيئة على التخلى عن التزاماتها لن تكون إلا دخيلة عليها . وإنها لكذلك فعلا .

وهذه القوى ، هى التى سردناها من قبل :

- رأس المال ، الذى يعمل اليوم فى نشاط جماعى عالمى . .
- الأحلاف التى تقوم على تقسيم العالم .
- السيادة والنفوذ القوميين ، اللذين تفرضهما دول كبرى .

والعلاج بعد هذا يسير إذا أرادت البشرية ، وإذا هبّت لتحقيق ما تريد .

العلاج ـ أن نعزل القوى الثلاث السالفة عن مراكز وثوبها . . وأن نضعها جميعاً فى يد هيئة الأمم .

إن الحديث عن حكومة عالمية واحدة ، لم يعد خرافة ولاوهما . . والحكومة العالمية ، مقبلة لا ريب فيها ، مثلما أن ضُحَى الغد مُقبل وآت . .

وليس معنى عدم توافر الظروف التى تسمح اليوم بقيام هذه الحكومة ـ أن نكف عن السعى المشترك لتهيئة تلك الظروف .

فإذا أردنا ـ ولا خيار لنا فى ألا نريد ـ فأمامنا الآن أعظم الفرص التى تفضى بنا إليها . . ألا وهى دعم هيئة الأمم . وطننا الأكبر ، وملاذنا الأخير . .

ونحن من جانبنا نرى أنه لا بد من أن ننقل إلى اختصاص الهيئة هذه القوى الثلاث :

- السياسة الخارجية . .
- العلاقات الاقتصادية . .
- العلاقات العلمية ، والثقافية . .

أما السياسة الخارجية ، فلا بد من التنازل عنها لهيئة الأمم تنازلا كلياً . ونقل اختصاصات وزارات الخارجية فى العالم كله إليها .

وذلك يقتضى إلغاء وزارات الخارجية ، أو تحويلها إلى وزارات تنفيذية لا غير . .

إن التضارب بين السياسات الخارجية للدول ، وما تعتمد عليه من مناورات ومؤامرات ، يقف وراء كل كارثة تنزل بالناس . . ولا بد لهذا ، أن تكون للعالم سياسة واحدة تقوم على تنسيق أوضاعه، وتحرى سلامته . .

أما « العلاقات الاقتصادية » فيكون إشراف الهيئة عليها إشراف الحَكَمَ فى مباراة نظيفة . . فهو يرصد نتائجها فى أمانة ، ويمنع اللاعبين فى كلا الفريقين من خرق النظام الموضوع . .

وإشراف الهيئة على الاقتصاد الرأسمالى ، سيعنى زجره عن الاحتكارات الضارة . وعن الاستعمار جرياً وراء الأسواق أو المواد الخام . . كما يعنى تنسيق علاقاته الداخلية بحيث لا ينجم عنه ظلم واستغلال .

واشرافها على الاقتصاد الشيوعى . يعنى إعطاءه بوصفه نظاماً جديداً فرصة التجربة ويعنى زجره عن كل كبت وإرهاق . . وإشرافها عليهما معاً على النحو المذكور لن يعنى ألغاء أحدهما ، بل يعنى إلغاء ظروف التصادم بينهما . . ويعنى تمكين قانون الاختيار التاريخى من الأخذ بأصلحهما .

أما العلاقات العلمية والثقافية ، فينبغى أن يكون إشراف الهيئة عليها أكثر من العلاقات الاقتصادية ، لأنها لا تحمل الحساسية التى تحملها الأولى .

ينبغى أن يكون إشراف الهيئة عليها كليا ـ مثل السياسة الخارجية تماما . . مع أباحة الفرصة لكل الأفكار لكى تخاطب الناس.. وأتاحة الفرصة للناس ، كى يعرفوا كل سَبق على ، حتى تصبح المعرفة عونا لنا على التقدم . . لاسلاحا جديداً من أسلحة التفوق الأنانى والغلبة الذاتية الإقتصاديين السائدين ـ الرأسمالية ، والإشتراكية . .

وهـذا الأشراف الذى تنادى به ، يمثل سَبَبـا ونتيجة فى نفس الوقت .

هو « سَبب » لأنه سيعجل بظروف الأخاء البشرى ويجعل من السلام حقيقة وواقعاً ومستقبلا .

وهو « نتيجة » بمعنى أنه لابد أن تسبقه مقدمات تضمن سلامته ، وتؤمّن حياة البشرية فى ظله .والسبب والنتيجة هنا يندمجان ويتفاعلان فإشراف هيئة الأمم على السياسة الخارجية لدول العالم ، وعلى النشاط الاقتصادى والثقافى رهن بعزل نفوذ الدول الكبرى بادىء بدء عن الهيئة . . وهو فى نفس الوقت الطريق الوحيد ، لعزل هذا النفوذ عنها . .

وإذا ، اتحدّت النتيجة والسبب فى أمر مـّا ، على هذا النحو ؛ فقد

بلغ هذا الأمر من الضرورة الحد الذى يجعل التخلى عنه سفاهة وانتحارا .

أما كيف تنقل اختصاص دول العالم فى السياسة ، وفى الاقتصاد ، وفى الثقافة . إلى هيئة الأمم ، فيمكن أن ينظم ذلك لجان من الخبراء والعارفين .

قد يقال . إن فى هيئة الأمم شعباً ، للاقتصاد ، وللثقافة وغيرهما . ولكن الوضع مختلف كل لاختلاف عما ننادى به . .

أننا نريد ألا تكون لأية دولة أية سيادة على سياستها الخارجية . ونريد أن تخضع خططنا الثقافية ، لأشراف عالمى ؛ لأن تنوع الأهواء والمصالح المناطة بالسياسة وبالاقتصاد وبالثقافة هو الذى يخلق التصادم والنزاع .

ولنلاحظ جيداً ـ أننا نقول « تنوع الأهواء والمصالح » فالثقافة مثلا ستظل محتفظة بتنوعها . بعد أن ينفى إشراف الهيئة عليها الضراوة وأغراض الدعاوة . .

وفى التنظيم الداخلى لهذا الإشرف ستُراعى ـ مؤقتاً ـ ، جميع الفروق الطبيعية القائمة . . وسيظل مجال التنافس المشروع قائماً بين النظم الاقتصادية والاتجاهات الثقافية .

وكل ماهناك أن هذا التنافس سيقوم يومئذ لاعلى أساس من

أغراض الدولة ، ومآربها الخاصة . . وإنما على أساس الأهلية الذاتية، والموهبة الحقيقية لكل من النظم الاقتصادية ،والاتجاهات الثقافية . .

نحن نعلم أن التطور الداخلى لكل أمة من الأمم ، ضرورى لبناء عالم جديد عظيم .

ولكننا نعلم كذلك أن هذا التطور الداخلى ، ينبغى أن يسير وفق مبادىء إنسانية كبرى وشاملة ، مادمنا صائرين إلى عالم واحد فعلا

وإذا ما اجتازت « هيئة الأمم » هذه التجربة بنجاح وتوفيق ، فأن الطريق يومئذ ، سينفسح أمامها ، فتشرف على القانون حتى توحده ، وعلى البوليس ، حتى يعيش الناس داخل بلادهم فى أمن أكثر ، وطمأنينة أوفى .

* * *

وعلى العالم ألا ينخدع بمحاولات التجمع التى تقوم الآن ، زاعمة أنها طريق إلى تجمع أوسع ينتظم البشرية كلها ، وزاعمة أنها تتم وفق ميثاق الأمم المتحـــدة . . فما أكثر ما ينطوى عليه هذا الزعم من كذب .

وأمامنا مثل واضح ، هو : « السوق الأوربية » . .

لقد كان من الممكن أن تكون هذه السوق محاولة طيبة ، ونموذجا لما ندعو إليه . . لكن لأنها تمت لحساب مصالح إقليمية لا عالمية فقد باءت بكثير من الأوزار .

إن هذه السوق لم تقم لتقرب شقة الخلاف بين جهود اقتصادية مسالمة بريئة، تريد أن تعيش، وتدع غيرها تعيش .. بل قامت لحماية مصالح دول توشك على الضياع، ويوشك نفوذها الاستعماري على الاندحار ..

ففي المعاهدة المبرمة بين الدول الأوربية المشتركة في هذه السوق، عزم على « نشر سياسة الاستثمار العامة في السوق، سيما المناطق المتخلفة اقتصاديا في شمال أفريقيا وباقي مستعمرات الدول الأعضاء » .. !

ما علاقة شمال أفريقيا بأوربا .. ؟

إنه الاستعمار ينادي بعضه بعضا، ويشد بعضه أزر بعض ليواصل القدرة على بسط نفوذه.

فهذه السوق إذن، تهدف إلى الاحتفاظ بمستعمرات الدول المشتركة فيها، وبعد أن أوشكت على الأفلات منها.

ولعل أوضح برهان على هذا تخصيص الدول المشتركة في السوق مبلغ « ١٨١ » مليونا من الدولارات لاستثمارها في مستعمراتها خلال المرحلة الأولى من مراحل الاستثمار ومدتها خمس سنوات.

وقد قامت بتوزيع الملايين المذكورة على مستعمرات فرنسا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا ..

* * *

هناك تجمع واحد لا غير ، هو الذى يضمن سلامتنا ـ ذلكم هو تجمع البشرية كلها ، من أجل أهدافها مجتمعة ، ومن أجل مستقبلها مُوَحَّدا . .

أما تلك الجيوب التى تقام فى أرجاء عالمنا ، متنافرة متنابذة . فهى عامل تمزق وتصدع . . أكثر مما هى عامل توحيد وتجمع . .

والتسويات الخاصة ، مصدر قلق دائم . . ولا بد من تسوية عامة لكل المشاكل الرئيسية فى عالمنا . . وليس أحد بقادر على مثل هذه التسوية سوى هيئة الأمم حين تتمتع بسلطانها المشروع كاملا .

عند ما قام التناوُش بين الصين والهند ، أثناء زيارة «خروشوف» لأمريكا ـ تفاءلت بهذا التناوُش كثيراً . .

وقلت لنفسى : لقد جاءت هذه الحركة فى أوانها ـ لنعلم تماماً . أن الخلاف بين أمريكا ، وروسيا ـ ليس وحده مصدر الخطر لعالمنا . . وإنما هناك مواطن خلاف أخرى وكثيرة ، يمكن أن تجىء منها أخطار أكيدة . . بل ويمكن أن تسبب حرباً ودماراً . .

من أجل هذا ؛ فمواطن الخلاف والنزاع جميعها ، يجب أن تُواجَه وتعالج .

وذلك يقتضى أن تعيش « هيئة الأمم » أياماً تاريخية كبرى تنجز فيها ما يلى :

• إبطال كافة الأوضاع الاستعمارية ، وتحرير جميع الأمم .. والجزُر ، والقواعد من مستعمريها .

• إرجاع جميع الحقوق المغتصبة إلى أهلها ، ويبدأ هذا بأهل فلسطين.

• تصحيح الوضع الدولى لكل الأمم ، ويبدأ هذا التصحيح بفتح أبواب الهيئة لستمائة مليون صينى . !

• إلغاء جميع الأحلاف القائمة ، وتحريم قيام أحلاف جديدة .

• تعديل ميثاق الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن تعديلا ينفى كل احتمال للتأثير على هاتين المنظمتين .

• تنظيم عمليات الإشراف الفعلى ، والتام على السياسة الخارجية لكل الدول وكذلك الثقافة الإنسانية ، ثم الاقتصاد العالمى ، تنظيما لا يعنى دَمج نُظُمه فى اتجاه واحد .. وإنما يعنى تنسيق جهودها الحرّة تنسيقا يكفل إبعادها عن الشحناء ، وإكسابها قوة أكثر ، للعمل من أجل الأنسان .

• حراسة المبادىء الرشيدة التى ينبغى أن يسير التطور الدخلى للأمم ، والتطور العام للأنسانية وَفقها . وعلى رأسها الاحترام المطلق للحرية الأنسانية ، والاستجابة التامة لكل مطالب المصير الأنسانى .

* * *

وبعد . ، فقد قُلنا كلمات نحسبها مجدية .. وนادينا بأمور ، الحاجة إليها بالغة

وأكاد أبصر القارىء ، وهو يتململ متسائلا : ونزع السلاح . . لماذا لم تحدثنا عن نزع السلاح . . ؟ ؟ !

وللقارىء العزيز أقول : لقد نزعنا السلاح فعلا بما قدمنا من مقترحات . حتى لولم يرد فيها ذكر ـ أىّ ذكر ـ لنزع السلاح . !

فالأسلحة ، إنما تُصنع ، وتشرع من أجل المآرب الخاصة للدول . . فإذا حولنا هذه المآرب الذاتية . إلى مآرب إنسانية ؛ فقد فقد التسلح كل مبرراته ومُسوّغاته . .

إن تطهير المصَبّ لا يُجدى فتيلا ، مادام المنبع نفسه يعج بالأقذار وأذكى وسيلة لتطهير المصب ، هى تطهير المنبع أولا . .

وقُوى السياسة ، والمال ، والمعرفة ـ هى المنابع التى يبدأ بتطهيرها وتطويعها لأغراض التقدم الانسانى ، عملنا وكفاحنا .

وهـــذا لا يمنع أبدا مضاعفة الجهود التى تُبذل اليوم لتحريم الأسلحه ، وتسريح الجيوش .

* * *

إن تبعات الرشد تنادينا إلى واجبات قد تكون شاقة . . بل هى شاقة فعلا . . ولكن لنذكر أن هذه المشقة تنطوى على أعظم فرصة مُتاحة لنا . .

ولنذكر أيضاً ، أنه ، إذا كنا نريد الحياة للجميع . ؛ فسبيل هذا أن يصير العالم للجميع .

مَطبَعة مُخيمَر
٢٩ شارع الجيش ت ٤٧١٩٢

للمؤلف ..

١ ـــ من هنا . . نبدأ

٢ ـــ مواطنون . . لا رعايا

٣ ـــ الديمقراطية . . أبدا

٤ ـــ الدين فى خدمة الشعب

ـــ هذا . . أو الطوفان

لكى لا تحرثوا فى البحر

الله ، والحرية } جزء أول

[illegible] ، والحرية } جزء ثان

٩ [illegible]اً على الطريق ، محمد والمسيح

١٠ الإنسان

١١ ـــ أفكار فى القمة

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٣

الثمن ١٥ قرشاً